قصة بني هلال
السيرة الهلالية
الشعبية باليمن

تأليف عبد الله عبد الرحمن السقاف الطهيفي

الإهداء

إلى كهولنا العمالقة..عند بارئهم..
ممن حفظوا لنا هذه السيرة لألف سنة
مرت
في صدورهم
جيلاً بعد جيل...
إليهم جميعاً أهدي هذا الجهد المتواضع

رقم الإيداع بدار الكتب
(**175**)
في صنعاءلعام **2010**
جميع الحقوق محفوظة للمؤلف
تحذير

يمنع طبع أو نشر هذا الكتاب أو جزء منه بأي طريقة كانت ميكانيكية
أوالكترونية أوغريها إلا بإذن خطي مسبقا من المؤلف
تحت طائلة قانون حقوق الملكية الفكرية

كل كتاب له علاقة خاصة بكاتبه، فهو قطعه من حياته فكره وعمله وتجربته استؤمنت عليها صفحات وسطور وحروف

محمد حسنين هيكل

تقديم ا.د. عبدالعزيزالمقالح

تحتل السيرة الهلالية موقعا متميزا في الثقافة الشعبية العربية،وهي تحكي بأسلوبها المبسط وأشعارها التي

تجمع بين الفصيح والعامي تاريخ بني هلال ورحلتهم الطويلة التي نقلتهم من أقصى جنوب الجزيرة العربية إلى شمال أفريقيا حيث كانت قد سبقتهم إلى ذلك المكان هجرات عربية قديمة ومتلاحقة يعود بعضها إلى ما قبل الإسلام بقرون،وتكونت بذلك جاليات عربية واسعة ما لبثت أن استقبلت الفتوحات الإسلامية بقلوب مفتوحة وصدررحب جعل من الشمال الأفريقي منطقة عربية إسلامية ، حملت الدين والعروبة إلى أرجاء القارة الأفريقية ، التي برى بعض الباحثين انها تكاد تكون قارة عربية باستثناءات لا تكاد تذكر،

ومن المؤكد ان هناك فارقا كبيرا بين السيرة الشعبية والتاريخ، فالسيرة بدت منفتحة على الأساطير المبالغات التي ألهبت خيال القراء في مشارق الوطن العربي ومغاربه،والتاريخ يقف عند الوقائع الحقيقية المستندة إلى الروايات التي يقبلها العقل والى المراجع الموثوق بها، وهذا ما يفعله كتاب الصديق الشيخ عبد الله عبد الرحمن السقاف الطهيفي،الذي لم يكف ولن يكف عن متابعة

أحوال المناطق الشرقية، تاريخها ونضالها وأشعارها وأمثالها وتاريخ مشاهيرها،وهو في هذا يستحق التقدير والثناء ومنذ عرفته وهو دائم العطاء لاينتهي من بحث حتى يبدأ في بحث آخر، وهي صفة لا يتمتع بها الكثير من الباحثين وأساتذة الجامعات، الذين يرون أنفسهم مؤهلين للبحث أكثر من غيرهم

لقد ظهرت حتى الآن أكثر من دراسة عن بني هلال وكلها تبحث أصولهم وموطنهم التاريخي، وكيف تمت رحلتهم من الجزيرة العربية عبر البر إلى أن وصلوا إلى مصر، ومنها إلى ليبيا ثم تونس والجزائر، وفي هذا الكتاب تتبع دقيق لقصة بني هلال كما تسردها السيرة الشعبية المتداولة شفهيا عبر الأجيال الثقافية في اليمن، معتمدا في اغلب فصول الكتاب على القصائد التي تناقلها الرواة، وكان من السهل حفظها وتداولها وفيها تسجيل كامل وموثق لقصة الهلاليين، وما عانوه من مشقات وكابدوه من حروب، وهو – أي هذا الكتاب يضاف إلى كتب المؤلف ورصيده في إحياء ما يكاد يندثر من حقائق

والله ولي التوفيق

كلية الآداب –جامعة صنعاء

في 2010/3/14

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمـــة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه..أما بعد..

قصة بني هلال كنا نستمتع بسماعها من الكهول ونحن صغار..حيث كنا نتحلق حول الراوي من المسنين بمناسبة وبدون مناسبة..وفي بداية القصة كان يقول الراوي لنا (**جاكم واحد ولا واحد إلا الله**) وكان الصغار يردون عليه بصوت جماعي واحد (**حيّك وحي إلبل**

عطايا الله) أي يردون له التحية وكذلك التحية للإبل التي هي عطايا الله..أي أن الله سبحانه وتعالى الذي أعطاهم هذه الإبل والتي عليها اعتمادهم في معيشتهم..

فيضيف الراوي (**ومن عليه ذنب يقول استغفر الله**) فيجيبه الصغار بصوت جماعي واحد (**استغفر الله العظيم**)..بهذه الكلمات الجميلة يفتتح الراوي قصة بني هلال كل ليلة..وكثيراً ما كان المجلس يضم أكثر من واحد من أولئك الكهول العمالقة..وأحياناً كان يحصل اختلاف بينهم حول بعض أشعار بني هلال..ونحن كنا نستمع فقط..وفي بعض الأحيان كان الراوي لنا القصة يرجع للآخر لتصحيح ما خانته ذاكرته عن تذكره من بيت من الشعر ونحوه..ولكنها كانت قصصاً متقطعة وروايات مشوقة للصغار وكان الصغار يتفاعلون مع ذلك السرد الجميل وأخبار المعارك والفروسية الخارقة..

ومع مرور السنوات داهمنا التغيير الذي طرأ على شتى جوانب الحياة..وأصبح الماضي يتلاشى لأن كثيراً من ذلك الجيل رحل إلى بارئه..ومع رحيلهم تلاشت تلك الحكايات الشعبية والأمثال الشعبية وهي تنحسر شيئاً فشيئاً عما كانت تقوم به من دور قد استبدل بهذه الوسائل الحديثة التي دخلت على حياة الإنسان المعاصر، وبالتالي انصرف الناس عن الحديث عنها بدخول هذي الثقافات..ولم ندرك أن تلك الحكايات الشعبية وتلك الحكم والأمثال الشعبية تمثل مرحلة من المراحل التي أرّخت لشعبنا منذ أمد بعيد، فأضحت ملكاً للتاريخ إلا أن أحداً لم يوثقها..فذلك التراث مهدد اليوم بالانقراض لا محالة في

هذا الزمن الرديء مما دعاني إلى العمل وبجهد فردي في المناطق الشرقية من بلادنا الحبيبة على توثيق ما أمكن توثيقه..

وقد صدر كتابي في مجال الحكم والأمثال الشعبية وتم توثيقه..

ثم كتابي الثاني.. (معجم للكلمات الشعبية)..

فضلاً عن توثيقي لشطر من النضال الوطني ضد المستعمر الأجنبي البريطاني في اليمن وهو كتابي الموسوم بـ/ (وثائق للتاريخ).. فالله الحمد والمنة.

أما سيرة بني هلال..تلاشى معظمها ولم يصمد بالذاكرة إلا النزر اليسير أمام التراكمات التي تزدحم بها حياتنا اليومية..ولم أعزم على تدوينها في شكل كتاب إلا في سبتمبر عام 2005م..عندما كنت في زيارة لطرابلس الغرب في الجماهيرية العربية الليبية الشقيقة، وفي أثناء محاضرة لي عن سد مارب والهجرات اليمنية للشمال الأفريقي..وكان أحد محاور المحاضرة هو عن هجرة بني هلال للشمال الأفريقي..أوضحت في هذا المحور بأن بني هلال رحلوا عن اليمن في القرن الخامس الهجري ولا تزال منهم قبائل تقيم باليمن موطنها الأصلي وهي:

1-قبيلة النسيين.
2-قبيلة خليفة.
3-قبيلة النمارة.
4-قبيلة آل ماضي.

وعند انتهاء المحاضرة وجهت إليّ الأسئلة عن مجال المحاضرة..إلا أن من أهمها سؤال للأخ الاستاذ الدكتور/ علي محمد برهانه مدير عام المركز الوطني للمأثورات الشعبية بالقطر العربي الليبي الشقيق.حيث قال: إن تلك معلومة جديدة بالنسبة له وهو المتخصص في التراث الشعبي..وتلك المعلومة أي أن بني هلال رحلوا من اليمن وأن منهم قبائل هلالية لا تزال موجودة حتى يومنا هذا وبأسمائها كما أوردت آنفاً..وأضاف أنه سأل أحد اليمنيين الضالعين في الأدب والتاريخ وكان سؤاله..هل تجد سيرة شعبية يمنية لبني هلال كما هي موجودة في الأقطار العربية مثل: ليبيا، والعراق، والشام، ومصر؟..فأجابه اليمني الضالع في الأدب والتاريخ بأنه لا توجد باليمن سيرة شعبية لبني هلال..وأنه فقط قرأ سيرتهم الشعبية في تلك الأقطار التي ذكر الدكتور /علي برهانه..

وطلب مني التوضيح أكثر..فشرحت له وللحاضرين في القاعة مؤكداً أنها توجد سيرة شعبية يمنية لبني هلال، وتتناقل من جيل إلى جيل بطريقة شفوية..ورويت لهم بعضاً من تلك الحكايات المقطعة التي لا زالت عالقة بالذاكرة..كإثبات بوجود تلك السيرة الهلالية في اليمن..ومن يومها عقدت العزم يومها على تدوين السيرة الشعبية الهلالية.

وفي اليمن رغم المشاغل المتعددة التي لا تكاد تحصى ذهبت إلى بعض المناطق خصيصاً للبحث عن هذه السيرة لدى من تبقى من الكهول..فضلا عن حصولي

على أشرطة كاسيت قديمة بها بعضا من القصيد الهلالي التي دونها الرواة الشعبيين وهي عبارة عن سرد للسيرة الهلالية شعراً دون تعليق..فوجدتها كافية للغرض لتسديد النواقص رغم أنه أعتورها بعض المسح في بعض أجزاء منها وبالتالي قمت بتفريغ ذلك على الورق وشرحت كل بيت من الشعر بما يفي بالغرض ثم جمعت بعضاً من أشعار بني هلال وأخبارهم في المناطق الشرقية من الرواة وهي متفرقة ومن عدة مناطق وقمت بترتيبها وشرحها ما أمكنني إلى ذلك سبيلا

هذا وقد قمت بترتيب كتابي هذا على خمسة فصول..على النحو التالي:

- الفصل الأول: إقامة بني هلال وأخبارهم قبل الرحيل.
- الفصل الثاني: ذهاب أبو زيد ورفاقه مرعي ويحيى ويونس والعبد الخاص بأبي زيد إلى الشمال الأفريقي لسبر غورها والإطلاع عليها عن كثب
- الفصل الثالث: رحلة بني هلال من جنوب الجزيرة العربية إلى الشمال الأفريقي..
- الفصل الرابع: عن حروب بني هلال مع الزناتي خليفة وما جرى في تلك الحروب من أهوال.
- الفصل الخامس: خصصته لعودة أبو زيد الهلالي إلى الجزيرة العربية لزيارة علياء الهلالية وبرفقته عزيز إبن خاله.

أرجوا أنني قد وفقت إلى توثيق هذه السيرة الشعبية لتحفظ للأجيال القادمة..
وبالله الهداية والتوفيق...

الروضة المحروسة
حريب مارب – وادي آل أبو طهيف
في: 2009/11/11م

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام عل رسول الله وعلى آله وصبه ومن والاه
أعزائي القراء الكرام يسعدني أن انشر الطبعة الثانية من هذا الكتاب الكترونيا مجانا لكم أرجوا إن تنال إعجابكم ومن نافلة القول بأن نشر تراثنا في المناطق الشرقية الذي طالما غاب طويلا عن النشر هو هدفي الوحيد وبالتالي توثيقه وحفظه للأجيال حتى لا يندثر مع انشغال الأجيال الناشئة بالجوالات التي أخذت الأغلب الأعم منهم:
ويحسن الإشارة إلى إن قراءتنا لقصة بني هلال تقتضينا أن نحكم عليهم بمقاييس عصرهم وليس بمقاييس عصرنا

حتى نفهم الظروف التي عاشوا فيها وهي بلا شك تختلف شكلا ومضمونا عن ظروف عصرنا:

وإذا كان هناك من فضل فهو يعود إلى الشيبان كهولنا في المناطق الشرقية من وطننا الحبيب فهم من حفظ لنا هذا التراث لقرونا من الزمن في صدورهم جيلا بعد جيل وليس لنا إلا أن نترحم عليهم رحمهم الله وأسكنهم فسيح جناته

المؤلف

في **2022/2/22**

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيـــد

الجزيرة العربية كما وصفها لسان اليمن أبو محمد الحسن الهمداني يمن وشام، فجنوبها اليمن وشمالها الشام ونجد وتهامة فالنجد ما أنجد منها عن السراة وظهر من رؤوسها ذاهباً إلى الشرق، وحجاز وهو ما حجز بين اليمن والشام والسراة هو ما استسوق واستطال في الأرض من جبال هذه الجزيرة، مشبهاً بسراة الأديم، وعروض وهو ما أعرض من هذه المواضع شرقاً إلى حيز شمال المشرق وعراق وشحر، فالعراق ما حاذى المياه العذبة والبحر من الأرض مأخوذ من عراق الدلو،

والشحر مأخوذ من شحر الأرض وهو سبخ الأرض ونبات الحموض.

ويسمي العرب بلادهم بالجزيرة العربية، ويعلل الجغرافيون تسميتها بالجزيرة بقولهم لإحاطة البحار والأنهار بها من جميع الجهات، ذلك لأن الفرات يقبل من بلاد تركيا ماراً ببادية الشام ثم ينحط على أطراف الجزيرة وسواد العراق حتى إذا قارب البصرة اتحد مع نهر دجلة وصبا معاً في الخليج العربي، ثم يأخذ البحر مضرباً طائفاً ببلاد العرب ومنعطفاً ويشمل عمان والشحر وحضرموت وعدن فباب المندب والبحر الأحمر، حتى صحراء سيناء، فالبحر الأبيض المتوسط التي تقع عليه سواحل الشام التي أقبل منها نهر الفرات منحطاً على أطراف الجزيرة وسواد العراق كما ذكرنا.

وهذه الجزيرة شحيحة الأمطار وقد تتابعت عليها سنين الجدب أعواماً عديدة، ومع أن سكانها كانوا يعتمدون على رعي المواشي التي كانت تهلك في أعوام الجدب، فقد شهدت هذه الجزيرة أمواجاً من الهجرات الجماعية إلى آفاق الأرض طلباً لاستمرار الحياة على مر التاريخ..وكان بنو هلال يمثلون واحدة من تلك الموجات المهاجرة من الجزيرة العربية.

ويحسن الإشارة إلى أن الروايات تختلف عن موطن بني هلال الأصلي وكذلك ليس لهم مدن أو قرى ثابتة عرفت

بهم، إلا في منطقة مرخة من أعمال شبوة اليمن، والأرجح أنهم كانوا متنقلين بصحاري الجزيرة العربية تبعاً لسقوط الأمطار والعشب والكلأ في صحاري: الربع الخالي، وصحراء النفود ، وصحراء السماوة أو الدهناء. فهذه صحاري ممتدة من شمال الجزيرة العربية إلى جنوبها ولم تكن بها فواصل تذكر ولم يكن هنالك من حدود كما هو الحال اليوم، ولذلك كانوا ينتقلون من شمال الجزيرة العربية إلى جنوبها ومن دلائل ما ذهبت إليه بيت من الشعر قاله السلطان حسن بن سرحان يثبت تنقلهم من جنوب الجزيرة العربية إلى شمالها تبعاً لسقوط الأمطار والرعي والكلأ..حيث قال:

إن هَبّتْ العِلْيَا فَغَيْثْ وَرَحْمَةْ ...

وإن هَبّت السفلى فَقَطّبْنَا حَدُوْرَهاَ

هبت العليا..الضمير فيها يعود للرياح والعليا الرياح الجنوبية..يقول..هذه الأرض إذا يسر الله بها ريح ممطرة جنوبية..فهو غيث ورحمة من الله سبحانه وتعالى.. **وإن هبت السفلى فقطبنا حدورها**..والسفلى هي الرياح الشمالية..فقطبنا..أي رحلنا..حدورها..الجهة الشمالية من الجزيرة العربية..

ومن المفارقة أن الوطن العربي من أقصاه إلى أقصاه، بل وكل منطقة من الوطن العربي تدعي أن بني هلال منها. أما نسب بني هلال فهم عدنانيون من قيس عيلان،

وجدهم هلال بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوزان من قيس عيلان.

علماً بأن المؤرخون يختلفون مع الروايات الشعبية في سبب الهجرة الهلالية، فالسيرة الشعبية الهلالية في مختلف الوطن العربي فتكاد تجمع أن السبب الحقيقي للهجرة الهلالية هو الجدب وشح الأمطار التي أصيبت بها الجزيرة العربية.. أما المؤرخون وعلى رأسهم إبن خلدون فقد عزوا تلك الهجرة إلى أسباب سياسية واختلاف حصل بين الدولة العباسية والدولة الفاطمية.. وكان البعض من المؤرخين متحاملين على بني هلال، وقد نعتوهم بشتى النعوت من بداوة وتدمير العمران...الخ..ورغم شح المراجع التاريخية لهجرة بني هلال من الجزيرة العربية إلى الشمال الأفريقي فلا بد أن أورد هنا لمحات موجزة عن ما ذكره بعض المؤرخين وأكثر من توسع في ذكرهم هو إبن خلدون المتوفي في سنة 808هـ. أي بعد هجرة بني هلال بثلاثة قرون تقريباً، وقد ذكرهم قبله إبن عذارى الذي عاش وكتب قبل إبن خلدون بقرن من الزمان ولكنه كان أكثر تحاملاً على بني هلال. أما إبن خلدون فقد ذكر أن بطون هلال وسليم من مضر لم يزالوا ظاهرين منذ الدولة العباسية وكانوا يغيرون على الضواحي وربما أغاروا على الحاج أيام الموسم بمكة وأيام الزيارة بالمدينة وما زالت البعوث

تجهز والكتائب تكتب من باب الخلافة ببغداد للإيقاع بهم وصون الحاج من معرات هجومهم، وأضاف: ولما تغلب شيعة ابن عبيد الله المهدي على مصر والشام وكان القرامطة قد تغلبوا على أنصار الشام فأنتزعها العزيز منهم وغلبهم عليها وردهم على أعقابهم ونقل أشياعهم من العرب من بني هلال وسليم فأنزلهم بالصعيد، وفي العدوة الشرقية من بحر النيل فأقاموا هناك وكانت لهم أضرار بالبلاد وقال أنه لما تحول المعز بن باديس عن موالاة الفاطميين وقطع الخطبة عنهم وعمل على مبايعة العباسيين ، وبلغ الخبر المستنصر أشار عليه وزيره اليازوري بإجزال العطايا لبني هلال ودفعهم للشمال الأفريقي وتولية مشائخهم البلاد، ووصل عامتهم من العطاء بعير ودينار لكل واحد منهم وأباح لهم إجازة النيل، وقال لهم قد أعطيتكم المغرب وملك المعز الصنهاجي (**العبد الآبق**)، فكتب اليازوري إلى المغرب، **أما بعد..فقد أنفذنا إليكم خيولاً فحولاً وأرسلنا عليها رجالاً كهولاً ليقضي الله أمراً كان مفعولا**..وقد أورد إبن خلدون اسماء عدد من كبار ومشائخ بني هلال وعلى رأسهم السلطان حسن بن سرحان وأخوه بدر وفضل بن ناهض وماضي بن مقرب وسلامه بن رزق وذياب بن غانم وزيد بن زيدان وزيد العجاج بن فاضل، وأضاف

أن زياد بن عامر رائدهم في دخول أفريقيا، ويسمونه لذلك أبا مخيبر.

ولا بد أن هذا الأخير هو أبو زيد الهلالي في السيرة الشعبية، حيث أن بعض أبياته الشعرية في السيرة الشعبية (**يقول أنا أبو زيد وأنا بو مخيمر**) وموضع الاختلاف مع ما أورده إبن خلدون في مخيبر أو أبو مخيمر، ومثل هذا يحصل ولا بد أنه تصحيف من النساخ، وكذلك أورد إبن خلدون بعض الأسماء المتطابقة أيضاً مع السيرة الشعبية الهلالية عندنا باليمن مثل قوله عن أحد الوزراء في الشمال الأفريقي وكان اسمه أبو سعدى خليفه ولا بد أنه الذي ورد إسمه بالسيرة الشعبية عندنا الزناتي خليفه التي إبنته اسمها سعدى والتي قيل أنها عشقت مرعي إبن السلطان حسن بن سرحان عندما رأته أول مرة وهو متنكر مع أبا زيد عند مجيئهم للشمال الأفريقي لسبر غور البلاد تمهيداً للهجرة الهلالية، وكانت تجيد ضرب الرمل وقراءة الفنجان حيث زعموا أنها تعلم الغيبيات، ثم ذكر إبن خلدون اسم ماضي وهذا الاسم توجد به قبيلة لا زالت إلى اليوم في اليمن، وكذلك ذكر مقرب ورياح، ومن المفارقات أنه يوجد بيت من الشعر بالسيرة الهلالية عندنا يقول:

يَاروُحْ قُولْ للقُرَّبْ المْتِقَرِبْ ... أنّا تَرَكْنَا حَرِيبْ وِشْرُورَهَا

ويبدو أن روح هذا هو رياح الذي ذكره إبن خلدون، ثم مقرب وهو نفسه المتقرب المذكور في البيت الشعري الشعبي..

أما صاحب مجمل تاريخ المغرب فقد ذكر أنه لما أقدم المعز بن باديس سنة 441 هـ 1049م. بعد إلغاء مراسيم الشيعة وبعد مبايعة بني العباس أقدم على سب أئمة الفاطميين من فوق المنابر مال الخليفة المستنصر لما كان يشير به عليه وزيره اليازوري الذي كان سبب القطيعة بأن ينتقم من (**العبد العاق**) بإقطاع أفريقيا لبني هلال وسليم..وأضاف بأن بني هلال وسليم ساهمت بقسط وافر في ثورة القرامطة بعد أن تمادى بنو هلال في نهبهم للقوافل وتعرضهم للحجيج أمر الخليفة الفاطمي بترحيل بني هلال إلى صعيد مصر ومنعهم من عبور النيل، لكنهم تابعوا أعمال الشغب والتخريب في وطنهم الجديد فإقترح اليازوري التخلص منهم بتحريضهم على غزو أفريقيا، وأضاف تاريخ المغرب أيضاً بأنه واجههم المعز بن باديس بمنطقة إسمها (**حيدران**) بين قابس والقيروان، فكانت الدائرة عليه، حيث قضوا على جيشه القضاء المبرم وشتتوه شذر مذر في 11/ذي القعدة/ 443 هـ 11/أبريل/1052م. ودخلوا مدينة القيروان بعد حصار طويل وكذلك أورد محمود شاكر في التاريخ الإسلامي قال: "لما قام المعز بن باديس بقطع الخطبة

بالمستنصر الفاطمي وخطب للعباسيين فما كان من المستنصر إلا أن شجع قبائل بني هلال التي نزلت الصعيد وأضرت فيه أن تتحرك نحو الغرب فوصلت إلى بلاد المعز بن باديس وعاثت فيها الفساد وإنتصرت على جنده ودخلت مدينة القيروان وخربتها عام 443 هـ".

هذا ما أورده المؤرخون العرب أما المؤرخون الأجانب فقد كانوا أكثر تحاملاً على بني هلال وأكتفي هنا بما أورده المؤرخ الفرنسي (إدوار بري) صاحب تاريخ الحضارات قال: لكي يقتص الفاطميون لأنفسهم من الموقف العدائي الذي وقفته ضدهم الدولة الزيرية في تونس فأطلقوا القبائل الهلالية التي كانت تزرع الخوف في جنبات مصر ووجهوها في أواسط القرن الحادي عشر ضد أفريقيا، فجرت عليه الخراب والدمار وأنزلت بالبلاد ضربة قاصمة ونكبةٌ نكباء، لم تعرف البلاد ما يماثلها بين الغزوات التي تألبت عليها منذ القديم، وبدلت من معالمها الزراعية وخلخلت نظامها الاقتصادي، فقد جعل الهلاليون من البلاد قفراً يباباً ترتادها الركبان والقوافل، وانتفت منها معالم الزرع والضرع وتهدمت شبكة الأبنية التي كانت تؤمن سقاية الأرض..الخ.

ومهما كان من الأمر فنحن بصدد السيرة الهلالية من منظور المأثور الشعبي اليمني وإنما أوردنا تلك اللمحات

عن المؤرخون ليأخذ القارئ الكريم فكرة عن موضوعنا.

وأما ما يثبت ما ذهبنا إليه بأن بني هلال رحلوا من اليمن أيضاً اسماء القبائل في البلاد العربية المغاربية (الشمال الأفريقي)..فعلى سبيل المثال لا الحصر توجد قبائل الشاوية في المغرب والجزائر وهذا الإسم موجود في قبيلة النسيين الهلالية..والشاوية أحد فروع قبيلة النسيين الهلالية باليمن.ونهم قبيلة كبيرة في الجزائر علما بان الرئيس الجزائري السابق هواري بو مدين ينتمي للشاويه .ثم قبائل المقارحة بليبيا وهم ممن رافق بني هلال في هجرتهم من اليمن ولا تزال قبائل المقارحة موجودة إلى اليوم باليمن..وكذلك آل بريك في ليبيا..وبهذا الاسم توجد قبيلة باليمن اليوم..وكذلك الزايدي والاشقم موجود أيضاً فضلاً عن المفردات من اللهجات والأمثال الشعبية والأسماء الخاصة بشئون الإبل والخيل والغنم..الخ..وهذا موضوع بحاجة إلى أن يفرد له بحث خاص..وبالعودة إلى السيرة الهلالية الشعبية فقد شكلت قدراً كبيراً من ذاكرة الشعوب العربية بكل ما أضفت على قبائل بني هلال من قصص البطولات الخارقة وبما أطرت عليهم من الكرم العربي الأصيل ومن الشيم والقيم التي يمتاز بها العرب. وما أستطيع إثباته هنا أن الهجرة الهلالية تمت من اليمن

جنوب الجزيرة العربية بدليل وجود القبائل الهلالية التي تخلفت عن الهجرة وهم: 1- قبائل النسيين، 2- قبائل خليفة، 3- قبائل النمارة، 4- قبائل آل ماضي. تلك القبائل تقيم اليوم بمحافظتي شبوة وحضرموت..فضلاً أنه لا يزال بنو هلال ورموزهم مثل أبا زيد الهلالي وحسن بن سرحان وذياب ابن غانم لا يزالون محل إعتزاز وفخر لقبائلهم الموجودة اليوم باليمن، ولا تزال أشعارهم متواترة إلى اليوم عن ذلك الفخر وأورد هنا انموجاً للشاعر الأصوع النسي الذي عاش في النصف الأخير من القرن الهجري الماضي..يقول:

شُفْ جَدّنَاَ أبوْ زَيْد قَهّارْ العِـــدىَ
يَارَبْ وَاحِدْ مِنْ حَيَاتِهْ يِعْدِمِـــهْ

ذِيّ هَدْ فِيْ بَرقَهْ وِكَسّرْ بَابِهَـا
خَلاَّ جِمُوعْ الشّعبْ تِظَلِيْ مِسْلِمِهْ

ثم ورد هنا أنموذجاً آخر عن ذلك التواتر من الآخرين دون الهلاليين إعترافاً بنسب القبائل الهلالية التي تخلفت في اليمن، فهذه أبيات شعرية للشريف حسين بن أحمد الهبيلي، أمير بيحان سابقا، ذات مرة أتى زائراً لبعض

مشايخ النسيين الهلالية والذين نزلوا ضيوفاً في بيحان[1] قال:

سلاَمِي عَلَى ذِي بِقطَعون الذول والجِنـــذِه

عِيال أبو زيد العسِر وذياب

مِسكِين الوِنِش ِمثلِي وَمِثك يَا اغبَر الجِلِدِه

عيون الرِيم مَا تَنظُر لمِن قِد شَـاب

أنا مَا هَمنِي ذِي هَمكم مِنه

وَلا تبت يَا أحمد لاَ علي قِد تَاب

يقول الشريف حسين بعد أن سلم عليهم أنهم الذين يقطعون الذول، والذول هو غصن الشجرة، ثم يقطعون الجنذة، وهي أصل الشجرة، أي يقومون باستئصال الشجر وهو وصف لشدة البأس، ثم قال: عيال أبو زيد العسر وذياب، والعسر في اللهجة هو الشجاع، وأضاف مسكين الونش، والونش هو المنهك أو المتعب، وقال يا

[1]) الشريف حسين بن احمد الهبيلي هو أمير (الإمارة الهبيلية الهاشمية)، أسسها في بيحان في ثلاثينيات القرن الميلادي الماضي وانتهت بانتهاء إتحاد الجنوب العربي وجلاء بريطانيا عن جنوب اليمن في 1967م. والشريف حسين الهبيلي شاعر مجيد وسياسي محنك.

أغبر الجلده، أي السيئ الجلده، وهو تعبير للمداعبه الأدبية، ويقصد أنه ليس وسيماً ولذلك قال: عيون الريم ما تنظر لمن قد شاب، أي لمن كبر سنه. وأضاف: أنا ما همني ذي همكم منه، يقول أنه لا يعير أي اهتمام من أي شيء، وهي مداعبة أدبية أيضاً. وفي هذه الأبيات من الأدب ودماثة الأخلاق والتواضع من شاعر عادي فما بالك من أمير كالأمير الشريف حسين بن أحمد الهبيلي رحمه الله تعالى ما زاده إعجاباً. ثم رد عليه أحد الضيوف وهو عبد الله بن ناصر بن جرادان النسي الهلالي وقال:

حيا لِذِي جَانا وَكان المجِي عِندِه

تراحيب المطر لرخا على لشعاب

حيا أبو قايد ملان الدار للسده

وَذِي مِنسبه غَالِي يَسمر مَعَ لجنَاب

يقول: حيا الذي جانا وكان المجيء عنده، أي أن الأولى بالزيارة هو، أي الأمير، ولذلك قال: ذي منسبه غالي يسمر مع لجناب أي الأجانب، ويقصد هنا أن من كان ذا حسب ونسب هو الذي يبادر بزيارة الأجانب، وهم في اللهجة الضيوف من خارج المنطقة وليس الاجانب بمفهوم اليوم

ومن الدلائل أيضاً لما ذهبت إليه هجر بني هلال في مرخة..وسحبول أبو زيد..وهو جلمود صخري مستطيل قيل أنه كان مربطاً لحصان أبو زيد الهلالي ولا يزال موجوداً إلى اليوم في وادي مرخه

وحتى لا أطيل أحيلكم إلى قصة بني هلال..فإن أصبت فذلك ماذهبت إليه. وإن قصرت فحسبي إنني اجتهدت..والكمال لله سبحانه وتعالى.

ومن ذا الذي ترضى سجاياه

كلها كفى المرء نبلا أن تعد معايبه

الروضة المحروسة

وادي آل أبو طهيف – حريب – مارب.

2009/11/20

الفصل الأول

أخبار بني هلال قبل هجرتهم الشهيرة
كرم أبي زيد

أشتهر أبو زيد الهلالي بالكرم الحاتمي إلى جانب شهرته بالبطولية والشجاعة الخارقة التي لا يضاهيه فيها أحد وله في الكرم حكايات ونوادر اشتهرت بشهرته في زمن الجوع والفاقة حيث لم يكن يجود بإكرام الضيوف إلا القلة القليلة من الناس وأشخاص معدودين لشح ذات اليد، ومن تجد به هذه النزعة الحسنة يشتهر بين الناس ويطير صيته في الآفاق وهي نزعة وسجية بالفطرة عند بعض الرجال، فهو يجد راحة نفسية في عمله هذا، والبعض منهم إن لم نقل معظمهم ليس ميسور الحال..ولكن لوجاهته لدى التجار يأخذ منهم ديناً ويسدد والبعض يموت مديوناً..وعندما يهبط المسافرون المنطقة التي يوجد بها شخص معروف بالكرم تؤمه الركبان دون سواه من الناس، أما أبو زيد الذي تروى عنه الحكايات في الكرم فيروى أن كرمه عن عسر فحيناً يجد ما يقدم لضيوفه ولا يجد ما يقدمه لهم في أحيان كثيرة.
فقد رويت عدة حكايات عن ذلك الكرم الحاتمي ومنها:

الحكاية الأولى

ذات مرة أتاه ضيوف وليس معه ما يقدمه لهم إضافة إلى أن زوجته التي هي إبنة عمه عند أهلها على أثر شجار بينها وبينه على عادة الأزواج فعندما أتاه الضيوف وسلموا عليه واستقر بهم المجلس قال لهم (**أرحبتوا على حديث ومجلس**) أي على الرحب والسعة ولكن سوف نحدثكم بما يريحكم..فطفق أبو زيد يتفنن في أحاديثه لقتل الوقت ولم يمض قليلاً من الوقت حتى نفد صبر أحدهم من شدة الجوع فانبرى قائلاً..(**ابو زيد نشناكم ونشنا حديثكم قد ساقنا اليوم من حرة الجوع سايق**) أي نحن يا أبا زيد نكرهكم ونكره حديثكم من شدة الجوع الذي قد ساقنا أي دفعنا للمجيء إليكم الجوع سايق أي دافع, فلما سمع أبو زيد هذا الكلام من الضيوف ظهر له ما يعانونه من ألم الجوع وعندها نهض من مجلسه وعزم على الخروج ليبحث وعما يقدمه لضيوفه وعزم على ركوب حصانه وهو يرتجز قائلاً:

أبو زيد مناع تالي ركايبه

أخذت سيفي وأعتزيت بعزوة

واركب على مهر يشق البنايق

أي أنا أبو زيد الذي يمنع الركبان من قوة بأسي وشجاعتي ولذلك فلا بد أن أحمل سيفي وأعتزي بعزوة أي أنسب آبائي وأجدادي أهل الكرم والجود وأمتطي جوادي الذي يشق البنايق..وهي الصحاري والقفار..فإتجه أبو زيد نحو جواده وعندما كان يهم أن

يمتطي صهوة الجهاد وينطلق ليبحث لضيوفه عن طعام إذا بزوجته تناديه قائلة:

أبو زيد معنا لضيفك ذخيرة ... قده من العام ما ذاقها

اليوم ذايق

تقول زوجته يا أبا زيد معنا لضيوفك ذخيرة أي إدخار من دقيق البر القمح كنا مدخرينها من العام السابق لم نقدمها لأحد (**ماذاقها اليوم ذايق**) استعداداً لمثل هذا اليوم..

فلما سمع أبو زيد ما قالت زوجته تهلل وجه بالبشر فرحاً وقال: موجهاً كلامه لضيوفه:

لي بنت عم والمناقيد بيننا ... واتنادي مناداة الشيوخ

العنايق

أي أيها الضيوف هذه أبنة عمي زوجتي والمناقيد أي الزعل بيننا فهي عند أهلها ولكنها ذات حسب ونسب ومنبت أصيل فهي تنادي مناداة المشائخ أهل المروءة والكرم العنايق الأصيلين بالحسب والنسب فصنعت لهم ما يقوم بشأنهم ويقدمه أبو زيد لهم .

الحكاية الثانية .. عن كرم أبي زيد

ذات مرة أتاه ضيوف وعددهم سبعة أشخاص وكانوا على سبع من المطايا (الإبل) ولم يكن لديه ما يقدمه لهم فلما أستقر بهم المجلس خرج يبحث لهم عن أكل فلم يجد ما يقدمه لهم غير مطاياهم السبع خلف البيوت فعمد إليها وجزرها عن آخرها وآتى باللحم وعند تقديم الآكل واللحم حرص على أن يقدم لكل واحد منهم قلب جمله وهي عادة في المناطق الشرقية من اليمن تقديم قلب الذبيحة إمعاناً في تكريم الضيف فلما رأوا القلوب السبعة تحيروا في أمرهم وأوجسوا خيفة بأن ساورهم الشك أن هذه قلوب جمالهم السبع وبعد الغداء خرج معهم وأطلعهم على فعلته وأضاف أنه سوف يذهب معهم للبراري والقفار الصحراوية وسيعمل على نهب إبل عوضاً عن إبلهم وأكد لهم أنه سوف يهب لهم أعداداً كبيرة من الإبل وليست سبع من الإبل ..

فركب على جواده وذهب معهم فلما وصلوا إلى الصحراء إذا هناك إبل كثيرة العدد ومعها عبد يرعاها فقال للعبد عبد من أنت قال العبد عبد أبي الجلات قال ابو زيد (**بل هدية أبي الجلات ربي حدى بها**) أي بل هذه هدية من الله سبحانة وتعالى..وأضاف ربي حدى بها أي أتى بها الله واستاق الإبل وكانت أعدادها كبيرة جداً وعندما وصلوا إلى جبل صغير أتى بعض الإبل على يمين الجبل والبعض الآخر على يسارها, فقال أبو زيد (**حازها برقها ياجنوبي**) حازها أي قسمها برقها

والأبرق عندهم لهجة تعني الجبل الصغير الذي يخالط صخوره تراب من الرمل ياجنوبي يقصد الضيوف وربما أنهم من الجنوب الذي لا نعرف أي جنوب والمعنى أن الجبل قسم الإبل قسم للضيوف والقسم الآخر لأبي زيد حيث كانت معيشتهم من النهب وليس لهم أي دخل آخر.

الحكاية الثالثة

روي أنه كان ينحر في الشهر عدداً كبيراً من الإبل للضيوف وكان السلطان حسن بن سرحان يساعده بعدد من تلك الإبل التي ينحرها أبو زيد للضيوف فكان يسوق له في العام مئة وعشرين من الإبل واستمروا على تلك الحال وقتاً طويلاً وقد قيلت فيه الاشعار ومنها:

أبو زِيَد يِذْبَح رْوُسْ فُطّرْهَا...مِنْ مِيَدْ عِلْمِهْ يَقَعْ زِينْ لُوْ صَافِيْ

والمعنى:

روس فطرها هي رؤس الإبل كبيرة السن من ميد أي من أجل يقع زين لو صافي يكون حسن السيرة والأوصاف ..

واستمروا على تلك الحالة زمناً طويلاً وجاءت أيام جدب وشحة للأمطار وساءت حالة بني هلال فأجتمع عددا من وجهاء بني هلال في صيوان السلطان حسن بن سرحان والبعض منهم كان يحمل حسداً لأبي زيد فقالوا لحسن بن سرحان هذه السنة بها جدب وقحط ويجب أن تمنع المساعدة من الإبل التي تدفعها لضيوف أبي زيد ويجب أن تضع حداً لإسراف أبي زيد ولذلك فإن الضيوف الذين يأتون ليلاً فيجب على أبو زيد أن لا يعترضهم فهم عند بني هلال وبني هلال هم الذين سوف يقومون بواجب الضيافة أما الضيوف الذين يأتون نهاراً فهم على أبي زيد وعليه أن يقوم بواجب الضيافة فوافق لهم السلطان حسن بن سرحان على هذا الإقتراح ولكنه قرر تخفيض المساعدة إلى النصف وليس منعها وبذلك تقرر

دفع ستين من الإبل بدلاً من المائة والعشرين فلما أبلغوا أبا زيد بهذه القرارات رفضها رفضاً باتاً وقال لا يمكن أن أترك الضيف سواء أتى ليلاً أو نهاراً, وكان قد تناهى إلى مسامعه بعض الأقاويل من بعض السفهاء الذي لا يخلوا منهم أي مجتمع في أي زمان فقال أبو زيد شعراً:

بِلَومُوْنِيْ لَنْذَالْ لاَكُثُرْ حَقّهُمْ

وَلامُونِيْ بِلـــــدّونِيْ بِكَـــــــــلاَمْ

بِقْولُوْن ضِيْف الْليلْ لاَ تِعْتِنِيْ لِهْ

وَهْو خِيْر لِيْ مِنْ قرْيةٍ وِهْجَــامْ

وحَلَفتْ مَا خَـــلّيْ مَالِيْ لِوَارِثْ

يْغِدِيْ خِـــلاَفِيْ هَدْةٍ واِقْسَـــــامْ

سِوى مُهْرةٍ صَفْرَاء وِعُودٍ مِنْ الْقَنَا

وِسَيفْ مِهَنْدَى فِيْ يَداتْ غُلاَمْ

وَزُوليّةٍ يَدْعَى بِها كُلْ سَاعَةْ

تِفْـــرَشْ وَعَادْ الْنّاجِيَـــاتْ قِيَـــامْ

وَسَرْجيّةٍ مَا تُرقِدْ الْليلْ كُلّهْ

وَعَادْ لَهَا مِنْ عَقْبْ الْسّامِرِينْ مَقَامْ

وَلاَ بِـــدْ مَا لِيْ غِلْمِةٍ بِنْعَشَوْنِيْ

وَسِـــيْرِهُمْ تَوْ الْقِبُــوْر هْــمَامْ

يقول أبو زيد الأنذال يلومنني على أكرام الضيف عندما كثر حقهم أي مالهم وبالتالي يلصقون بي بعض الأقاويل النابية..

وقال:

يقولون ضيف الليل لا تعتني له

وهو خير لي من قرية وهجــام

قالوا أيضاً ضيف الليل لا تعتني له أي لا يعنيك وهو خير أي أحسن لي من قرية وهجام أي أفضل لي من قرية والهجام الإبل الكثيرة..

وقال:

وحلفت ما خـــلي مالي لوارث

يغدي خـــلافي هدة واقســـــام

وأضاف وقد حلفت ماخلي أي لا أترك مالي للورثة حتى لا يظل يصير بعدي هدة أي مشاجرة ومضاربة عندما يقسمون المال بينهم بعد موتي..

وقال:

سوى مهرة صفراء وعود من القنا

وسيف مهندى في يدات غلام

وأضاف..لن أترك بعدي غير الفرس ذات اللون الأصفر والرمح والسيف..في يدات غلام..والغلام هو الفتى اليافع..
وقال:

وزولية يدعى بها كل ساعة

تفـــــرش وعاد الناجيـــــات قـيـــــام

وزولية أي بساط من الفراش الذي يفرش للضيف كل ساعة وعاد الناجيات أي الإبل المطايا قيام أي واقفة..
وقال:

وسرجية ما ترقد الليل كله

وعاد لها من عقب السامرين مقام

والسرجية هي المرأة التي لا تنام طوال الليل بل تسهر عل راحة وإعداد أكل الضيوف وأضاف وعاد لها أي للمرأة عقب السامرين مقام أي بعد سهر الليل فلها أن تنهض بعد أن تغفو غفوة قصيرة لترتيب شؤون البيت لراحة الضيوف..
وقال:

ولا بـــــد ما لي غلمة ينعشونني

وســـــــيرهم تو القبـــوره هـــمام

وقال أبو زيد ولذلك فأنا مؤمن بالله ولا بد لي من غلمة والغلمة هما الشباب ينعشونني أي يحملوني على النعش وسيرهم تو القبور همام أي مشيهم نحو القبور مسرعين..

فكانت تلك الأبيات القوية التعبير بمثابة النقض لتلك القرارات وعندها أخرست الألسن واستمر أبو زيد في إكرام الضيوف سواءً أتوا ليلاً أم نهاراً..واستمر حسن بن سرحان بتقديم المساعدة العينية من الإبل لإكرام الضيوف.

الفصل الثاني

ذهاب أبي زيد ورفاقه لسبر غور الشمال الأفريقي تمهيداً للهجرة الهلالية

لما طالت سنين القحط والجدب في أرجاء الجزيرة العربية وبني هلال اعتمادهم في معيشتهم على الأمطار لينبت العشب في صحاري الجزيرة العربية لتربية المواشي التي يقتاتون منها، اجتمع كبار القوم في صيوان حسن بن سرحان وتداولوا الأمر وقال السلطان حسن بن سرحان ما هو رأيكم فهذه سنين الجدب توالت علينا والجزيرة العربية لم تعد تصلح لنا بعد لكثرة مواشينا وأرض الله واسعة، قالوا: الرأي عندك أيها السلطان ونحن رهن إشارتك، قال السلطان حسن بن سرحان: أنا أرى أن يذهب منكم رائدا يطوف الأرض وينظر أي بلاد الله يصلح لسكنانا مع مراعاة مواشينا، فلن نعيش بدونها ويجعل هدفه ما يصلح للمواشي قبل أن ينظر لمصلحتنا نحن، قالوا: ونعم الرأي، ثم قالوا: ومن هو الرائد؟..قال: أنا أرى أن مالها إلا أبو مخيمر (أبو زيد) فلا يجيد الريادة غيره، وهو يستطيع أن يتنكر ويطوف الأرض لمعرفة أدغالها ومفازاتها، قالوا: صدقت أيها السلطان.

كل ذلك وأبو زيد ساكت لم ينبت ببنت شفه، وعندها التفت السلطان حسن بن سرحان نحو أبي زيد قائلاً: لماذا لم تتكلم يا بطل بني هلال وعمودها الأشم..قال:

الأمر لك يا عم..ولكن لي شرط..قال: أنا أقبل شرطك مهما كان، فما هو؟..قال أبو زيد أنا أريد الشباب معي وهم: مرعي ابنك ويحيى ويونس، قال: لك هذا..فقال: أبو زيد موجهاً كلامه لأكابر بني هلال: أنا قبلت اختياري رائداً وسوف يرافقني مرعي ويحيى ويونس وسوف نطوف الأرض البعيدة فلا تنتظروا منا العودة في وقت قريب..قالوا: أنت يا أبا زيد العارف بهكذا أمور ولا نستطيع أن نملي عليك أو نشترط عليك شرطاً فأنت أخبر ومن غيرك يجيد مثل هذه المهمة الخطرة فمالها إلا أنت ونحن منتظرون ولا نملك إلا الدعاء لك ولمن معك.

وفي صباح اليوم التالي غادر أبو زيد مع مرافقيه مضارب بني هلال مودعين بالتهليل والتكبير والعبرات والدعاء بأن يردهم الله سالمين غانمين.

وقد رافقهم أيضاً العبد الخاص بأبي زيد لخدمته، وكانت وجهتهم الأولى العراق، وبعد أن طافوا العراق كانت وجهتهم الثانية بلاد الشام فتوجهوا بلاد الشام، وبعد أن طافوا بلاد الشام كانت وجهتهم الثالثة مصر، وبعد أن طافوا بلاد مصر، استقروا فترة بصعيد مصر متنكرين فقال أبو زيد لرفاقه وهو ذو طموح (ليس له حدود) قال: نريد بلاد المغرب برقة وقابس، لنطوفها أيضاً فما هو رأيكم..قالوا: نحن معك يا أبا زيد، والرأي الأول والأخير لك ونحن طوع أمرك فقال على بركة الله، فتوجهوا نحو برقة فلما دخلوا هذه البلاد وكان موسم أمطار وخير وبركة فدهشوا من هذه الأرض وخضرتها ونباتها وعشبها الذي يتناسب مع مواشيهم فواصلوا

السير غرباً بمحاذاة الساحل وكلما نظروا إلى هذه الأرض زاد إعجابهم بها لكثرة مائها وطيب هوائها ونباتها وعشبها وأشجارها وثمارها حتى وصلوا إلى قابس وكان السلطان بهذه البلاد اسمه الزناتي خليفة، وكانت له بنت على قدر كبير من الجمال والكمال وهي ذات حظوة عند أبيها، بحيث أنه لا يرد لها طلباً لسداد رأيها وكمال عقلها، وكانت لها خبرة في إجادة ضرب الرمل وقراءة الفنجان، ولذلك كان أبوها السلطان يرجع إليها ويأخذ برأيها في أمور الدولة الهامة، فعندما دخل أبو زيد ورفاقه المدينة أرتاب بهم رجال الأمن وألقوا عليهم القبض وسألوهم من أي البلاد هم، قالوا نحن عبيد وشعار نطوف عند الأكابر ويمنحونا الهبات والعطايا.

ومن المفارقات العجيبة أن يومهم هذا كان يوم عيد تقام به الاحتفالات في إحدى المناسبات الحكومية، وكان رجال الأمن منهمكين في إعداد وتهيئة الخيول للعرض العسكري لذلك الاحتفال، فيما كانت أحدى الخيول تمردت عليهم وهابوها وخافوها ولم يستطع أحد الإمساك بها فقالوا لأبي زيد ورفاقه: هل لكم خبرة بالخيول؟..قالوا نعم هذا العبد عنده خبرة بالخيول "يقصدون أبا زيد"..فقالوا لأبي زيد: أيها العبد..نريدك أن تساعدنا بالإمساك بهذا الجواد ولكم علينا أن نعاملكم معاملةً طيبة، قال حباً وكرامة، فأخذ منهم حبلاً وانطلق نحو الخيل..وما هي إلا لحظات معدودة حتى كان ممتطياً صهوة الجواد، وإذا هو يلف عليه كأنه الأسد الكاسر في أقصى سرعة الجري، فانبهر رجال الأمن من قدرة هذا

العبد الأسود وخبرته بالخيل، وبعد أن أخذ الجواد عدة أشواط حتى أخذ العرق يتصبب من الجواد من شدة الإجهاد، وقف أبو زيد ونزل وناولهم خطام الجواد، قالوا أيها العبد لقد أسديت إلينا صنيعاً عظيماً ولكن بقي لنا عندك طلباً..قال: وما هو طلبكم.؟

قالوا هل رفاقك العبيد يجيدون ركوب الخيل أيضاً؟..قال: نعم إنهم كذلك..قالوا إذن أنت على جوادك هذا وهم سوف نعطي كل منهم جواداً..وعندما يحين موعد عرض الجيش أمام قصر السلطان تعرضون من ضمن الجيش..قال: حباً وكرامة.

فهيئوا أنفسهم لهذه المهمة..ومن حسن الطالع أن الجواد الذي كان من نصيب الشاب مرعي كان جواداً أشقر اللون رشيق القوام جميلاً، أصيلاً، وجاءت ساعة العرض أمام القصر فامتطى أبو زيد صهوة الجواد وكذلك فعل رفاقه مرعي ويحيى ويونس والعبد كلاً منهم على ظهر جواد ودخلوا ضمن الخيالة من جيش السلطان الزناتي خليفة، ومرت القوة من الخيالة أمام قصر السلطان وكان السلطان جالساً في شرفة القصر مع خاصته من كبار رجال الدولة وكانت ابنته سعدا مع النساء في شرفة قصرها المقابل لقصر السلطان أبيها، فعرضت القوة وكان الخيالة يعملون حركات بهلوانية لإظهار فروسيتهم، وما أن وقعت عين سعدا ابنة السلطان على الشاب مرعي إبن السلطان حسن بن سرحان حتى وقعت في حبه من أول نظرة، فسألت عنه قيل لها أنه عبد غريب الديار مع رفاق له أتوا

حديثاً..وبعد انتهاء الاحتفال ذهبت لأبيها وطلبت منه ذلك العبد ليخدم لديها بالقصر وكان أباها لا يرد لها طلباً..قال حباً وكرامة يا ابنتي..وأمر قائد الحرس لتنفيذ ذلك، فدخل مرعي عليها القصر وسألته عن هويته وماذا أتى به إلى هذه البلاد قال: نحن عبيد وشعار ومننا خمسة أشخاص نطوف عند الأكابر نرجو نوالهم..قالت: وأين رفاقك..قال: عند رجال الأمن..فبعثت لهم..وعندما حضروا ضربت الرمل..وعرفت غايتهم وهدفهم الذي أتوا من أجله وعرفت عنهم كل شيء بما في ذلك أسمائهم..فوجهت كلامها لأبو زيد..قائلة له: من أنتم..قال: نحن عبيد نلف الأرض عند السلاطين نرجو نوالهم..فقالت: بل أنتم بني هلال وجئتم من الجزيرة العربية وهدفكم ريادة الأرض وسبر غورها..ثم إحتلالها..فدهشوا وتملكهم الفزع..وقالت شعراً..

أسماتكم مرعي وعبده ويونس

وأنت يا أبو زيد العايب المكـــــار

رحتوا من الشجن شجنين هيناً

يوم الخميس وإنتصاف نهــار

..... وخليتوا القايمة على اليسـار

وهنا قد أوضحت سعدا لأبو زيد ورفاقه عن هويتهم وغايتهم وهدفهم الحقيقي من مجيئهم إلى بلاد برقة وقابس..قالت: حتى أسماؤكم معروفة لدي، وأنتوا وانتم

أتيتوا من بلاد المشرق العربي من الشجن وهو اسم موضع في حريب مارب، أما هيناً فهو إسم موضع في حضرموت..وأضافت وخليتوا أي تركتوا القائمة عند مجيئكم على يساركم، والقائمة هي إسم لجبل منتصب في وادي آل أبو طهيف حريب – مارب.
فلما سمع منها أبو زيد هذه الأبيات وعرف وهو يجيد ضرب الرمل أيضاً أن سعدا قد عرفتهم وعرفت غايتهم وهدفهم وعرف بأنها قد وقعت في غرام مرعي..وقرر أن يساومها على مرعي..فقال لها: نحن غريبو ديار وهذا مرعي خذيه يبقى لديك حتى تضمنين أن لا نعمل ما تخافينه وأكتمي الخبر سراً بيننا وبينك..وقال:
أجبيتي بمرعي لا رعيتي ولا رعي

وكوني علينا كاتمة لسرار

يقول أبو زيد: أجبيتي وهي كلمة تعني خذي مرعي..لا رعيتي ولا رعي وهو تعبير في اللهجة يعني دعاء هزلي وليس جدي بأن الله لا يرعاها ولا يرعى مرعي..وأضاف مشترطاً أن تكوني كاتمة لسرار بمعنى الأسرار ولا تبيحي سرنا لأحد..وهذا مرعي حبيبك عندك بالقصر حتى يجعل الله لنا مخرجا.
فبقى مرعي عند الأميرة سعدا بالقصر وأما أبو زيد فبقي مع رفاقه موقوفين عند رجال الأمن وفي صباح اليوم التالي جاء السلطان إلى ابنته سعدا يسألها عن أخبار هؤلاء العبيد الذي أوجس منهم خيفة وخاصة أبو زيد الذي لاحظ عليه النجابة والفروسية والقيادة..فقالت له: يا

أبتي هؤلاء عبيد..قال: دققي في ضرب الرمل وتحققي عنهم وعن هدفهم..قالت: قد دققت وتأكد لدي بأنهم عبيد..يطوفون الأرض للمعيشة..فقال أبوها السلطان الزناتي خليفة لا..هؤلاء فرسان وخاصة العبد أكبرهم فأنا خائف منه..ولابد أنه مضمر شراً..فلا بد من إعدامهم ضرباً بالسيف وقال شعراً:

أبْوشْ يَا سِعْدىَ مِنْ العَبدْ خَايِفْ

فَجْحَى أرْجِيْلهْ مِنْ رَكْوُبْ أمْهَارْ

أي أباكي ياسعدا خائف من هذا العبد الذي أرى رجليه فجحى أي معوجه ولا بد أنها من أثر ركوب الخيل المهار وهذا الاعوجاج الظاهر يلازم من جبل على ركوب الخيل من الصغر من الفرسان.
قالت الأميرة سعدا:
يَابِهْ لاَ تِذْبَحوْا ضِيْفَانْكُمْ

فَجْحَى أرْجِيْلهْ مِنْ ركُوبْ حِمَارْ

أي يا أبتي لا تذبحوا ضيوفكم..فهذا العبد الذي تخاف منه وتقول بأن رجليه معوجة جراء ركوب الخيل..فما ذلك إلا من ركوب الحمير كعادة العبيد فلا تتسرع يا أبتي.
فقال: وقد لاحظ احمرار أعين أبي زيد:
أبوّشْ يَا سعدا مِنْ الْعَبْد خَايِفْ

حَمْراَء عِيْونهْ كَنّهَا شَرَارْ

أي أباكي يا سعدى خائف من هذا العبد الذي أعينه بها احمرار تنذر بالشر..فهذه العيون الحمراء ليست عيون عبدا..وكنها..أي كأنها.

فقالت:

يَا بْهِ لاَ تِذْبحوْا ضِيْفَانْكُمْ

حَمْراَء عِيْونهْ مِنْ شِبْبِيبْ الْنَـــــارْ

أي يا أبتي لا تذبحوا ضيوفكم.. فهذا العبد الذي أنت خائف منه وتقول بأن عينيه حمراوان فهذا الاحمرار ناتج عن شبه للنار لخدمة أسياده..وهو يطبخ لهم الأكل..فقال وقد لاحظ رأس أبي زيد أصلعاً عن الشعر:

أبوُشْ يَا سعدا مِنْ الْعَبْد خَايِفْ

رَأسِهْ مِسَحْسَحْ مِنْ بَارُوتْ حَار

أي أباكي يا سعدا خائف من هذا العبد الأصلع الذي رأسه مسحسح، أي خالياً من الشعر ولا بد أنه ناتج من حمله للباروت..أي للبارود على رأسه.

فقالت:

يَا بهْ لاَ تذْبحَوْا ضِيْفَانْكُمْ

رَاسِهْ مِسَحْسَحْ مِنْ صِحَافْ كْبَـار

شُوفْ ذَبَحةْ الْضِيفَانْ تِغْدِيْ مَلاَمِةْ

بِغْدِيْ لِكُمْ عِنْدِ الْقَبَايِلْ عَـارْ

أي يا أبتي لا تعمل على ذبح ضيوفك. أما رأسه فأطمئنك بأنه ليس كما ذهبت إليه ولكنه ناتج عن حمله لصحاف كبار أي لصحون الأكل الكبيرة وذلك عندما يحمل الصحون على رأسه لخدمة أسياده..وأضافت بأنك إذا أقدمت على إعدام ضيوفك فإن ذلك سيلحق بك الملامة وبالتالي سيلحق بك العار وتقال عليك الأقاويل بأنك وأنت السلطان العظيم قد أقدمت على إعدام ضيفك وهو عار عند القبائل ولا أنصحك بذلك..حتى لا تتشوه سمعتك بين القبائل وبعد هذا السجال بين السلطان الزناتي خليفة وإبنته سعدا التي بررت وجهة نظرها..وفندت كل ملاحظات أبيها التي كان قد لاحظها ظاهرةً على أبي زيد..إضافة إلى حدسه المرهف..ولكن سعدى بقوة منطقها وحظوتها عند أبيها وثقته المطلقة فيها قد أقنعته..وهنا أقنعت أباها بأنهم ليسوا إلا عبيداً وأنهم ضيوف غرباء وليس من اللائق قتلهم دون ذنب اقترفوه..وقد نجحت في دفاعها المستميت عنهم..فقال أبوها: وماذا نعمل بهم..قالت: أرى أن تشغلوهم عندكم في رعي المواشي فهم عندهم خبرة في ذلك..فقال أبوها: حباً وكرامة.

فألحقهم برعاة الغنم..فأوكلوا إليهم رعي غنم السلطان فكانوا يذهبون نهاراً لرعي الغنم ويأتون في المساء وكانت أيام أمطار فقال لهم المسئول عن رعي الغنم إذا أتى عليكم المطر فاعملوا على إدخال الغنم في الكهوف..قالوا إن الكهوف صغيرة لا تستوعب الغنم..فقال لهم ادخلوا ما استطعتم ولو رؤوسها في

الكهوف..قالوا حباً وكرامة..فذهبوا بتلك الأغنام للرعي في الجبال وعملوا على تقطيع رؤوسها وإدخالها الكهوف وأكلوا من لحمها وفي المساء أتوا بدون أغنام..فقال لهم المسئول أين الغنم..قال أبو زيد نحن عملنا كما أمرتنا أدخلنا رؤوسها في الكهوف..فقال كيف؟..قالوا تعال نريكها فذهب معهم وما راعه إلا أن رأى رؤوس الأغنام مقطعة داخل الكهوف، فدهش وكاد يصعق من هول ما رأى..فذهب بهم إلى القصر وأبلغ السلطان ذلك وأمر بسجنهم وعمل أبو زيد على إبلاغ سعدى سراً بالأمر..وكانت تبعث إليهم بالأكل من قصرها وتطمئن مرعي الذي يقيم معها داخل القصر بأنها سوف تعمل حيلتها لإخراجهم من السجن..ومكثوا داخل السجن عدة أشهر وفي يوم من الأيام قامت سعدى بزيارة أبيها السلطان فرحب بها وأجلسها بجانبه وسألها عن حاجتها فقالت هؤلاء العبيد ماهم إلا عبيد سذج أريدك تفرج عنهم لأنهم أناس غرباء..وماقاموا بتلك الفعلة إلا لسذاجة عقولهم عندما أمروهم بحفظ رؤوس الأغنام من المطر..وهنا أضحكته على سذاجتهم البلهاء..فقال: لا بأس.

وأطلق سراحهم وأعيدوا لرعي المواشي مرة أخرى..فقال لهم مسئول القصر: يبدو أن ليس عندكم خبرة في رعي الأغنام..فهل عندكم خبرة لرعي الأبقار؟..قالوا: نعم..فدفع إليهم عدداً من الأبقار التابعة للقصر وقال لهم اذهبوا بها للرعي فذهبوا وبعد مرور عدة أيام قال لهم وقد لاحظ الوحل على أقدام البقر عندما

كانت تقترب من المياه لتشرب، فكانت أقدامها تغوص في الوحل..فقال لهم المسئول: يجب أن لا تتركوا الأبقار تطأ الوحل قالوا وكيف؟..قال: لأن ذلك يؤذيها ويشوه أقدامها..فيجب عليكم عندما تسقونها أن لا تتركوا أقدامها تغوص في الوحل..قال أبو زيد: حباً وكرامة..فذهبوا في اليوم التالي لرعي تلك الأبقار وعمدوا إلى تقطيع أقدامها ووضعوها جانباً وأتوا في المساء بدون أبقار..فسألهم المسئول عن الأبقار..فقالوا قد حمينا أقدامها من الوحل..فقال كيف؟ قالوا: هذه هي.

ونثروها أمامه...قائلين: هاهي أقدامها مصانة نظيفة كما أمرتنا..فصعق المسئول وصاح وأزبد وأرعد وأمر بسجنهم مرة أخرى..وعمل على إبلاغ السلطان.

فقال السلطان: لا بد من إعدامهم..واعترضت سعدى وقالت سوف يقال عنك بأنك قتلت ضيوفك كما قلت لك سابقاً..ولكن عندي حيلة للتخلص منهم..قال لها: وما هي؟..قالت: أن تضعهم في جلود بقر..وتخيط عليهم ويحملهم العبيد ويرمونهم في البحر..وكانت قد ضربت الرمل وظهر لها بأن أبا زيد سوف يتخلص من هذه الورطة..ويعود إلى وطنه بالجزيرة العربية ويأتي ببني هلال للشمال الأفريقي وسوف تقوم بني هلال باحتلال الشمال الأفريقي..وكذلك أبو زيد ضرب الرمل وظهر له بأنه سوف يتخلص بطريقة ما.

استصوب أبوها هذه الطريقة في التخلص من هؤلاء العبيد كما يعتقد..وفي المساء أرسلت سعدى من يحضر لها أبا زيد سراً من السجن حتى تتدارس معه ومع

مرعي هذا الأمر..وأوضحت له بأنه ظهر لها في الرمل بأنه سوف يتخلص وأنه سوف يذهب للجزيرة العربية مرة أخرى ويحضر بني هلال وسوف يحتلون الشمال الأفريقي..ووضعت الرمل أمامه..وضرب الرمل وهو يجيد ذلك..وظهر له ما ظهر لسعدى..فقال لها الأمر كذلك.. ولكن الأمر شاق وسوف نتغلب على هذا الأمر بإذن الله تعالى..فقال مرعي أنا لا أعتقد بهذا الرمل الذي تزعمان أنت وسعدى ولكن يا أبا زيد إذا الله خلصك من هذا المأزق الخطر أريد منك وعداً بأن تعود مع بني هلال إلى هذه الأرض..فقال أبو زيد: حباً وكرامة..وقام أبو زيد وقص شعر من ذقنه وناوله مرعي وقال له هذه شعرات من ذقني كرمز للوعد وقطع عهدا بالوفاء..فقال: مرعي كم المدة التي سوف تأتيني فيها..فقال له: ثلاث سنين وثلاثة أشهر وثلاثة أيام واتفقا على هذا..وقامت سعدى وهي صاحبة حيلة ومكيدة وناولت أبا زيد قليلاً من التمر وقليلاً من الفحم وقالت: يا أبا زيد هذا تمراً وهذا فحم..ادخله معك داخل جلد البقر الذي سوف يخاط عليك داخله..واعمل حيلتك للتخلص وأنت صاحب الحيل والمكائد..ومثلك لا يوصى..فأخذ التمر والفحم وفهم الغرض وعاد إلى السجن..وفي صباح اليوم التالي أمر السلطان الزناتي خليفة بوضع كل منهم في جلد البقر ممدد وخاطوا عليهم وحملوهم أربعة من العبيد على الحمير لغرض رميهم بالبحر سراً كما أشارت سعدى..

وذهبوا بهم فلما اقتربوا من الساحل كان أبو زيد يقضم الفحم حتى يسمع صداه العبد الموكل بحراسته فقال له

ماذا تأكل؟..قال تمراً لذيذاً..فقال أتناولني منه حبة؟..قال حباً وكرامة..ولكن اعمل فتحاً صغيراً حتى أناولك..فعمل فتحاً صغيراً وأدخل حبة من التمر اللذيذ..فلما تذوقه العبد وكان جائعاً استطابه وقال زدني..فزاده حبة أخرى..وأكلها وقال زدني..قال لا بد أن توسع الفتحة قليلاً حتى أعطيك أكثر..ففتح له فتحة كبيرةً وعندها أدخل قبضتيه مع الفتحة ومزق الجلد بقبضتي يده وشد على العبد وأنتزع منه سيفه وقتله..فلما رأوا ذلك العبيد تمكنوا من قتل يحيويونس وشد عليهم وقتلهم قبل أن يقتلوا الثالث وكان الثالث هو العبد التابع له الذي اسمه عبده والذي خلصه من الجلد..وبعد هذه المعركة الدامية التي نتج عنها قتل العبيد الأربعة التابعين للسلطان الزناتي وقتل رفاق أبي زيد يحيى ويونس..وعندها لاذ بالفرار أبو زيد والعبد وجدوا في المسير متوجهين للشرق ومتنكرين..وفي صباح اليوم التالي عندما لم يعد العبيد إلى قصر السلطان أبلغ السلطان بعدم عودتهم..فذهب السلطان إلى ابنته سعدى ليستفسر منها عن ذلك..وقال لها يا ابنتي العبيد لم يعودوا فعليك أن تضربي الرمل لتكتشفي مصيرهم..فضربت الرمل واكتشفت مصارع القوم العبيد ثم يحيى ويونس وشاهدت فرار أبي زيد، ومن هول المفاجئة قالت..

((**هالني أبو زيد الله يهيله**)) أي غلبني أبو زيد..فكانت زلة لسان منها..وهنا أفصحت عن هوية أبي زيد دون قصد..وكان أبو زيد الهلالي مشهوراً عندهم..فلما سمعها أبوها أسقط في يده وإكتشف أن العبد الذي كان متوجساً

منه خيفة ما هو إلا أبو زيد فصب جام غضبه على إبنته وقال:

رمتنا سعدى رماها الله من السماء

وشينتنا شين الرب حالهـــا

قالت عُبيد القوم لا تقتلونـــه

إنثر عبيد القوم حامي ثقالهـــــا

ياريت سعدى ما غدت لي مشيرة

إن كان فال الله لنا قبل فالها

قال الزناتي: رمتنا بمعنى خدعتنا سعدى..فدعى عليها وقال وشينتنا..شين الرب حالها.. أي أساءت إلينا وقال: قالت عُبيد القوم لا تقتلونه..وعُبيد تصغير عبد..وأضاف وإنثر، بمعنى إتضح لنا.. بأن عبيد القوم ما هو إلا حامي حماها..أي أبو زيد..ثم قال: ياريت أي ياليت للتمني إن سعدى ما غدت لي..أي لم تكن لي مستشارة وهو يتمنى أنه لم يتخذ سعدى مستشارة له..وقال: إن كان فال الله..بمعنى إذا كان استخار الله في إعدامهم وقطع الشك باليقين والفال هو الرمل والمعنى أنه كان نادماً بأنه لم يتخذ الأمور بحزم..

أما ما كان من أمر أبو زيد ورفيقه الوحيد عبده فإنهما كانا يمشيان ليلاً ويختبئان نهاراً حتى لا يكتشفهما أحد..وجدا بالسير حتى دخلا الجزيرة العربية..فكان أبي

زيد يقول للعبد ويشدد عليه بأن عليهم أن يعملا على ترغيب بني هلال في الهجرة إلى برقة وقابس وقال له يجب أن نرغب القوم ونسهل لهم الأمر وبالتالي نبالغ في مدح الأرض المغربية..وقال له يجب أن نقول (**برقة وقابس لولا بُعدها**) أي برقة وقابس لم نجد أحسن منها في البلاد التي زرناها لولا بعد المسافة الجغرافية، لأن بعد المسافة عمل سهل بالنسبة لبني هلال..فقال العبد لا يا سيدي..أنا لن أقول هذا..قال لماذا؟..وما الذي سوف تقوله..قال سوف أقول (**برقة وقابس لولا رجالها**) أي برقة وقابس لم نجد أحسن منها في البلاد التي زرناها إلا أن رجالها أبطال أشداء وشرسين ولا يمكن التغلب عليهم بسهولة..فقال أبو زيد..لا يا عبده..هذا كلام سوف يثبط القوم عن الهجرة..يجب أن تقول قولي..قال له لا لن أقوله..فلما رأى أبو زيد إصرار العبد على هذا القول قرر في قرارة نفسه قتله..فقال للعبد بعد أن إنتحى به عن الطريق إحفر هنا حفرة..فطفق العبد يحفر الحفرة وأبو زيد واقفاً يرتجز ويقول..

يَاحَافِرْ الْحُفْرَةْ وَسِّعْ تَرَاكِيْهاَ...يَاالْعَبْد يَا لَسْودَ خَافَكْ تِقَعْ فِيْهَا

أي أيها العبد الذي تحفر الحفرة عليك أن توسع جنباتها..**تراكيها**..وقال يا أيها العبد الأسود يمكن أن يكون مصيرك داخل هذه الحفرة..خافك أي لعلك.

فلما إنتهى العبد من حفر هذه الحفرة "القبر" قتله أبو زيد ووضعه في الحفرة وواراه التراب..وواصل السير حتى

أقترب من مضارب بني هلال فوجد الأولاد يرعون الخيل والإبل ومن ضمنهم إبناً له..فعرفهم ولم يعرفوه..وكانت له فرساً تفقدها بين الخيل وهذه الفرس لم يمتطيها شخص منذ غيابه وهي تنفر من كل الرجال إلا أبو زيد..فقال لإبنه هل أركب هذه الفرس؟..قال يا عم إنك لا تستطيع لأنها فرس أبو زيد..قال فإذا ركبتها؟..قال: إذا استطعت ركوبها فهي لك..قال حسناً: فاقترب منها وناداها باسمها وأتته سعياً وامتطاها وانطلق بها كعادته ولف على الأولاد ووقف ونزل عنها..فلما نظر إبنه ذلك المنظر وكان قد قطع وعداً بأن الفرس له..إنفجر باكياً ندماً على الفرس..فقال له أباه أبو زيد: يابني لا تخف أنا متنازل عنها لك.

فلما حل الظلام أنصرف الرعيان بمواشيهم إلى مضاربهم وقال: أبوريد هل أرافقكم ضيفاً؟..قالوا: على الرحب والسعة..فلما وصلوا مضارب بني هلال لم يعرفه أحد وكان أشعث أغبر رث الثياب منهك القوى متغيرة ملامحه..فجلس في مضافهم المعتاد وكان المجلس أقرب إلى بيته..فذهب إبنه وقال لأمه: معنا ضيف نريد له طعاماً..فقالت خذ هذه القبضة من التمر وأعطها له..فتناول الولد التمر وذهب به وناول أباه وهو لا يعرفه..فلما تناول هذه الكتلة من التمر "وهي كتلة كقبضة رجل" فلما تناولها أبو زيد عضها بأسنانه الأمامية فلما أحدثت أسنانه أثراً ناول هذه الكتلة للصبي وقال له ناول هذه أمك..فلما رأت أم الصبي أثر أسنانه قالت: هذه أسنان أبو زيد..ولكنها احتارت في أمرها

وقالت: لا بد أن أتأكد مرة أخرى..فقامت وناولت الصبي قدحاً مملوء من حليب الإبل وقالت له: إذهب به لضيفك ولكن لا تأتيه من أمامه يجب أن تأتيه من الخلف..وعندما تقف على رأسه تقول له: (**امنحه**) وهي كلمة تقال عند تقديم حليب الإبل وعليك أن تنظر ماذا يعمل..فإن التفت إليك وتناول منك القدح ووجهه إلى وجهك فهو ليس بأبو زيد..و إ ن كان بعد أن يسمع هذه الكلمة (**أمنحه**) لم يلتفت بل يمد يديه من فوق رأسه إلى الخلف ويتناول القدح قائلاً (**ومنعه**) ويشرب الحليب عن آخره ويناولك القدح من فوق رأسه وهو لم يلتفت فهو أبو زيد بلا شك..فلما أتاه الصبي وناوله الحليب كما أوصته أمه لم يلتفت وقال..(**أمنعه**) وتناول القدح من فوق رأسه دون أن يلتفت وأعاد القدح كما تناوله..فلما عاد الصبي إلى أمه وقص لها الخبر قالت: **هو أبو زيد ورب الكعبة**..فصاحت من الفرح والتم القوم وأخبرتهم الخبر وأطلقت الزغاريد ودقت طبول الفرح وقالوا يا أبو زيد سوف نذهب معك إلى السلطان حسن بن سرحان..وكان يبعد عنهم مسافة ساعة من الزمن..فأركبوه على جمل وذهبوا في موكب مهيب من الزغاريد والألعاب والأهازيج تتقدمهم البشائر بوصول أبي زيد..فلما اقترب من صيوان حسن بن سرحان وكان الناس يسلمون عليه وهو على الجمل..وكان له ابن يافع لم يستطع أن ينال يد أباه ليقبلها..فقالوا له إن ابنك لم يستطع أن ينالك..فقال: إذا كان ابني بحق وحقيق فسوف يعمل أي تصرف حتى يستطيع أن يسلم علي براحته..فلما سمع الفتى ما قال

أبوه: أستل سيفه وعقر الجمل..فهوى الجمل مضرجاً بدمائه وهجم على أبيه ليسلم عليه..وكان هذا التصرف من الفتى محل إعجاب من والده فأحتضنه وقبله وكذلك محل إعجاب من كبار القوم وعندها قال حسن بن سرحان:

ما هذا الشبل إلا من ذاك الأسد

فلما دخل القوم صيوان حسن بن سرحان تحلقوا حول أبي زيد وسألوه عن رفاقه الشباب مرعي ويحيى ويونس والعبد..فقال: لهم أما يحيى ويونس فقد قتلا..وأما مرعي إبن السلطان حسن بن سرحان فإنه نازلاً بقصر الأميرة سعدا إبنة السلطان الزناتي خليفة معزا مكرما ولا بد من المسير إليهم حتى نأخذ سعدا عنوة ونزوجها مرعي وأما العبد فقد هلك يرحمه الله..

وقص لهم خبر الرحلة من العراق إلى الشام إلى مصر ثم إلى برقة وقابس اللتان أطنب في مدحهما ورغبهم فيهما وقال ليس بالأرض أفضل ولا أطيب ولا أحسن من برقة وقابس..فأرضهما خيراتها كثيرة وأمطارها كثيرة وأعشابها ونباتها وماؤها وأشجارها لا توصف وأكثر في مدح تلك البلاد..وتسامر القوم حتى الصباح وكانت عليا واقفة مع الناس إلا أنها لما رأت من تغير حالة أبي زيد ولاحظت الشيب قد داهمه تقدمت إليه وهي له بمثابة ليلى من قيس أو عزة من كثير أو بثينة من جميل فقالت:

أَخْبَارَكْ يَا أبوْ زَيْد لاَ طَابْ عِلْمَـــــكْ

ذِيْ رُحْتْ مِنّيْ شَابْ وَالْيَوْم شَايِبْ[2]

إنْ كُنْتْ مَدْيَوناً قَضَيْنَا دِيُونَــكْ

وإنْ كُنْتّ مَعْتُوباً جَلَيْنا الْعَتَايِـــــبْ

تقول علياء الهلالية: أخبارك يا أبو زيد لا طاب علمك..أي ما هي أخبارك يا أبا زيد وهو تساؤل عن مظهره الذي يوحي لها بأنه قد شاب..وقالت لا طاب علمك..وهي لهجة في المزاح اللطيف..وعلمك هو خبرك..ثم قالت..إذا كان مظهرك هذا المزري ناتجاً عن دين عندك..فنحن على إستعداد أن نسدد ديونك..**قضينا ديونك**..وقالت: وإن كنت معتوباً..جلينا العتايب..اي إذا كان لديك هم وهو العتب جلينا أي أزلنا الهموم عنك..العتايب..فأجاب أبو زيد:

شَيْبتْ يَا عَلْيَا مِنْ الْبعْدْ والْسّرَى

وَمِنْ دَكّاتْ الْعِدىَ وإِفْتِرَاقْ الحْبَايِـــــبْ

وَشَيّبْتْ يَا عَلْيَا مِنْ مِجَافَاةْ رَبْعِـــيْ
يَومْ هم راحَوْا جَانِبْ وَانَا رُحْتْ جَانِبْ

[2]) ما أشبه قول علياء الهلالية هذا بقول كثير عزه عندما قال: **وقد زعمت أني تغيرت بعدها...ومن ذا الذي يا عز لا يتغير**
تغير جسمي والخليقة كالتي عهدت .. ولم يخبر بسرك مخبر

إِحْنَا إِذَا شِبْنَا تِجَدَدْ شِيْوبَنَـــــــا

كَمَا يَجَدْد المْرَعَى بَرشْ الْسَحَايِـــــــــبْ
وِإنْتَنْ إِذَا شِبْتَنْ عَلَيْكَنْ مَكَـــــــــادِهْ

وِتَقَطّعَنْ حَبْل الْهَوى بِالكَذَايْـــــــبْ

يقول أبو زيد: أنا شيبت يا عليا من البعد ومن السفر ليلاً..السرى..ومن دكات العدى..بمعنى مصارعة الأهوال والأعداء..وكذلك من فراق الأحبة..وقال: وشيبت يا عليا من مجافاة ربعي..أي من فراقهم..والمقصود مرعي ويحيى ويونس..عندما ذهبوا إلى جهة وأنا رحت جهة أخرى..**يومهم راحوا جانب وأنا رحت جانب**..وأضاف..إحنا إذا شبنا..أي نحن الرجال إذا شبنا..فنحن نتجدد..وشبه ذلك التجديد بالمراعي حين تتجدد بهطول الأمطار على الأعشاب..**كما يجدد المرعى برش السحايب**..أما أنتن أيها النساء..فإنكن إذا شبتن فعليكن صعوبة في تقبل ذلك..مكاده..وتقطعن أي تتحاملن على أنفسكن وذلك من الكذب بعد أن ولى الشباب..**ويقطعن حبل الهوى بالكذايب**.

وفي صباح اليوم التالي..أقيم حفل استقبال ومدت الموائد على شرف أبو زيد..فقام أبو زيد خطيباً وشوق لهم الهجرة..فقالوا الرأي لكم أيها الشيوخ..فقال الرأي الأول والأخير عند الأمير السلطان حسن بن سرحان..ولكن

السلطان حسن أرجع الرأي لأبي زيد قائلاً: بل الرأي لك يا أبا مخيمر..وعندها وقف أبو زيد قائلاً وهو بمثابة القرار..إذن عليكم أن تجهزوا أنفسكم خلال عام كامل ويجب عليكم أن الإبل لا تضربونها أي لا تعملوا على حملها..أي تناسلها..والخيل لا تقفزونها..أي لا تعملوا على حملها..أي تناسلها حتى لا تعيقكم صغارها عن الرحيل..وتزودوا وهيئوا أنفسكم وبعد مرور عام كامل مثل اليوم يجب أن نرحل عن هذه البلاد الجدب..قالوا سمعاً وطاعة..وارتجز:

يامن ورد يتهنا ويامن وراده شنا

وحنا على دوري السنة ضَعِنَّـــــا

أي يا كل من ورد المياه العذبة فعليه أن يهنأ بشرب المياه العذبة ويتزود منها..وقال يامن قرب الماء لديه باليه والوراد هي القرب..وشنا هو شن بمعنى بالية فعليه أن يضع له قرباً بدلاً عنها جديدة لبعد الشقة في السفر..وقال **وحنا**..أي نحن.. **على دوري السنة ضَعِنَّا**..أي بعد مرور السنة سوف نضعن..بمعنى نرحل وهذا ما سوف نعرفه في الفصل التالي..

الفصل الثالث

رحيل بني هلال إلى بلاد برقة وقابس

وخلال العام المضروب موعداً كان هناك لغط كثير من بعض المثبطين المتخاذلين الذين طموحهم ونظرتهم تحت أقدامهم..فعمدوا على التثبيط عن الرحيل للمغرب العربي وقال قائلهم لماذا لا نرحل لبلاد قريبة في المشرق العربي مثل العراق أو الشام، أما تلك البلاد فهي بعيدة عنا..وحاولوا إقناع السلطان حسن بن سرحان ولكنه لم يلتفت إليهم..وعند التهيؤ قال قصيدته المشهورة التالية:

قصيدة السلطان حسن بن سرحان

أنا حَسَنْ الْتّقَى وَنَا حَسَنْ ... وَنَا حَسَنْ مِقْدَامْ رَبْعِيْ وَنْوُرْهَا
وَانَا حَسَنْ مَانَا بْوَلَد هميه ... وَلاَ زوّلَت بِي بِين بِيبَان دورَهَا
وَأنَا أبوْ عَلَيْ مَانَا بْفَرْخْ ... قَرِيْبْ مِنْ مَفرَّها إلَى جَاَ نَفُورَهاَ
كَمِّنْ هِدَانِيْ يَوْكِلْ الْبُوم راسه ... لَوْ كَانْ عِنْدِهْ حِجّةٍ ما يبورها
بِلادٍ بِهَا عَمّارْ لاَ بَلّهَا ... شِبَاعٍ حَبَارِيْهَا جِيَاعٍ صقورها
لِيَما عَادْ فِيْ عَرْضِيْ لِعْرْضِيْ ... شَدّيتْ وَخَلّيْتَهاَ تِناجَى قّصُورَهَا
ولِيْ َجْمةٍ[3]حِمْ الْذِرى تِبْغِضْ ... تِسَادىَ شَرارِيْفْ الْبِنَفيْ ظِهُورَهَا

[3]) الهجمة من الإبل التي عددها من السبعين إلى المائة، ومن أسماء وأوصاف الإبل يقولون ذود، وهي من الإبل ما كان عددها من الاثنتين إلى العشر، والصرمه هي من العشر إلى العشرين، والقطيع من العشرين إلى السبعين، والهجمة من السبعين إلى المائة، والجرجور أكثر من الهجمة.

وَكَمْ مِقْفِر نِعْطِيْه مِنْهَا مِنيْحِــهْ وَكَمْ مِرجِلٍ نِعْطِيْهْ مِنْهَا هورها
وَفَكّيتْ فِيْ إبْلِيْ ثَمانِيْن وَلاَ ايَاتِهَا إلاّ مَازَغَرْ فَي نحورها
رُحْنَا عِصِيْرْ الْلَيْل مِنْ قَرْيَةَ مِنْ قَرِيْةٍ عِيْطَا تِلاَلى قَصُورْهَا
رُحْنَا وَلاَكَنْ عَمَرْنَا مِدْينةَ وَلاَ الْشُقْةَ الْمرْيَىَ رَعَيْنَا قِفُورْهَا
بِلاَدٍ بَهَا عِيْسَى يَقُودْ حِصَانهْ لْو كَانْ عِنْدهْ حِجةٍ مَا يِبُورَهَا
إن هَبَتْ الْعِليا فِغَيْثٍ وَرَحْمَةَ وإنْ هَبّتْ الْسِّفْلَى فَقَطّبْنَا حَدُورَهَا
وَطرَحْنَا وقيّةٍ وَرْس فِيْ حِيْدِنَا ذَبّتْ ثَمَانْ سِنِيْنْ وَهِيْ فِيْ قَرُورَهَا
لاَهبّتْ الْعِليَا وَلاَ هَبّتْ الْسّفِلىَ وَلاَ الْمِغْرِبِيّةَ سَقَى الله بَحورَها
وَحطّيْنَا عَلىَ الْجَوْفَا ثَلاَثِيْنْ عَلى دَامِرْ الهلتا إنْتَبع جذورها

القصيدة مع شرحها

يقول حسن بن سرحان:

أنا حَسَنْ الْتّقَى وَنَا حَسَنْ الْنّقَاء .... وَنَا حَسَنْ مِقْدَامْ رَبْعِيْ وَنْوُرْهَا

يقول حسن بن سرحان...أنه صاحب التُقى، والتُقى هو من التقوى..وقال **وانا حسن النقاء**..والنقاء هو الصدق والوفاء..وقال..وأنا **حسن مقدام ربعي ونورها**..أي أنه القدوة في أصحابه ونبراسها..**مقدام ربعي ونورها**..

وقال...

وَانَا حَسَنْ مَانَا بْوَلَدْ حَضْرِيّةْ .... وَلاَ زوّلَتْ بِيْ بِيْنْ بِيْبَانْ دُورَهَا

وأنا حسن ما نا بولد مهميه..بمعنى أنه بدوي ولم تكن أمه مهمية..يعني غير معروفة وهو بذلك يفخر .. وقال:

وَأنَا أبوْ عَلَيْ مَانَا بْفَرْخْ الْدّجَاجةْ .... قَرِيْبْ مِنْ مَفرَّها إلَى جَاَ نَفُورَهاَ

وأنا أبو علي مانا بفرخ الدجاجة..يقول السلطان حسن بن سرحان أنه ليس كالدجاجة التي إذا نفرت وحاولت الطيران لا تستطيع..وتسقط بعد الطيران بخطوات قليلة..**قريب من مفرها إلى جا نفورها**..

وهو رد على المثبطين الذين قالوا لماذا نهاجر إلى البلاد البعيدة فيما توجد أراض تصلح للمعيشة قريبة منا..وهو بذلك يؤكد لهم بأنه ذو طموح لا حدود له..وأن بُعد المسافة الجغرافية لا تهمه ولا تقلقه..وشبه المثبطين بالدجاج التي لا تستطيع الطيران إلى مسافات بعيدة..

وقال:

كَمِّنْ هِدَانِيْ يَوْكِلْ الْبُومْ رَاسِـــــهْ....لَوْ كَانْ عِنْدِهْ حِجّةٍ مَا يبْوُرهَـــــا

يقول حسن بن سرحان: كمن هداني, والهداني هو الدون من الرجال الكسول، فهو كما قال حسن بن سرحان يوكل البوم راسه، والبوم هو الطائر المعروف، وقال: لو كان عنده حجةٍ ما يبورها، أي إذا كان لديه أي موضوع لا يستطيع أن يواجهه فهو كسول ولا يعتد به. وهو بذلك يلوم المتخاذلون والمثبطون عن الرحيل.

وقال:

بِلادٍ بِهَا عَمّارْ لاَ بَلّهَـا الحْيَـــــــا....شِبَاعٍ حَبَارِيْهَا جِيَاعٍ صُقُورَهـــا

وهنا يقول: أي أي بلاد يسكن بها الرجل الذي إسمه عمار ولا بد أنه من المثبطين لا بلها الحيا، والحيا هو

المطر، شباع حباريها، جياع صقورها، والحبارى كناية عن الطبقة الدنيا من المجتمع، وصقورها كناية عن الطبقة العليا من المجتمع، فهو يقول: أن الأغنياء هم الطبقة الدنيا وأما الفقراء هم الطبقة العليا من المجتمع.

وقال:

لِيَما عَادْ فِيْ عَرْضِيْ لِعْرْضِيْ مُرَوّةْ ....شَدّيِتْ وَخَلّيْتَهاَ تِناجَى قْصُورَهَا

ليما عاد في عرضي لعرضي مروة..بمعنى أنه بذلك القرار وهو قرار الهجرة صان عرضه..وهو لإمكانيات التي يعتمد عليها في كرمه وعطاءه وبذله للضعفاء والمحتاجين..وتلك الإمكانيات عمادها المواشي فليس عنده إمكانيات دولة لا ضرائب ولا دخل غير المواشي..فهي أي المواشي التي تصون عرضه..وقال..**شديت وخليتها تناجي قصورها**..أي إذا لم يكن ذلك الصون للعرض فلا بد من الرحيل..وخليتها أي تركتها تناجى..أي تنادم القصور بعضها بعضاً..وهي المدينة التي رحل عنها بني هلال في (مرخة بمحافظة شبوة - اليمن)..

وقال:

ولِيْ هَجْمةٍ حِمْ الْذِرى تِبْغِضْ القرى .... تِسَادىَ شَرارِيْفْ الْبِنَى فَيْ ظِهُورَهَا

وقال.. **ولي هجمة حم الذرى تبغض القرى**..والهجمة هي العدد الكبير من الإبل..حم الذرى..الحم هو اللون الأحمر مشوب بالسواد..والذرى جمع ذروة وهو ذروة الجمل أي سنامه..فهو يقول أن لديه إبلاً كثيرة لون

أسنمتها أو ذراها بين الأحمر والأسود..وأضاف بأن هذه الإبل تبغض القرى..والإبل عادةً تنفر من المدن..فهي متعودة العيش في الصحاري والقفار..وهو يعتبر ذلك مدحاً لها..وأضاف..**تسادى شراريف البنى في ظهورها**..تسادى بمعنى تظن..شراريف وهي شرفات المباني الدور..يقول..بأن هذه الإبل التي وصف الوانها وقال أنها تبغض وتنفر من المدن أنها تخاف من تلك المباني..وعندما ترى تلك المباني..تعتقد وتظن أن تلك الشرفات من المباني في ظهورها من شدة الخوف..وهو بذلك الوصف يعتبره مدحاً لإبله التي لا تعيش إلا في الصحاري والقفار.

وقال:

وَكَمْ مِقْفِر نِعْطِيْه مِنْهَا مِنيْحِهْ ....وَكَمْ مِرجِلٍ نِعْطِيْهْ مِنْهَا ظُهُورَهَا

يقول السلطان حسن بن سرحان: كم مقفر والمقفر هو من ليس عنده حليب أو من لم يجد أي دسومه في بيته، يقولون: مقفر، فهو يقول: نحن نعطي أي نهب لمن هو محتاج إلى حليب الإبل نعطيه منها منيحه والمنيحه هي الناقة اللبون تعطى للمحتاج مدة موسم حليبها..وقال: وكم مرجل والمرجل هو عكس الهجان، فهو يقول: رب محتاج إلى مطيه فنعطيه المطية لتساعده على التنقل، (نعطيه منها ظهورها).

وقال:

وَفَكّيتْ فِيْ إبْلِيْ ثَمانِيْن قَرْقَرِيْ ....وَلاَ ايَاتِهَا إلاّ مَازَغَرْ فَيْ نِحُورْهَا

وقـال: وفكيـت أي أطلقـت فـي الإبـل ثمـانين قرقـري، والقرقـري هـو الجمـل الفحـل الهـائج، وذلـك لغـرض تلقيحها، وأضـاف ولا اياتها أي جميعها إلا ما زعر في نحورها أي إلا ما عملت الجمال الفحول على تلحقيها وهو يتفاخر بكثرة امتلاكه للجمال الهائجة.

وقال:

رُحْنَا عِصِيْرْ الْلَيْل مِنْ قَرْيَةْ الْهَجَر .... مِنْ قَرِيْةٍ عِيْطَا تِلاَلى قُصُورْهَا

وقال وهو يصف رحيل بني هلال.. **رحنا عصير الليل من قرية الهجر**.. ورحنا أي ذهبنا..عصير الليل..وهو وقت الأصيل عند غروب الشمس..وهم يقولون عصير تصغير لوقت لعصر إذا كان الوقت عند الغروب..وذلك من قرية الهجر..والهجر هي قرية مهجورة إلى اليوم إسمها (هجر بني هلال في وادي مرخة – شبوة مارب)..وأضاف.. **من قرية عيطا تلالي قصورها**..والعيطا هي البيضاء..تلالى قصورها..اي تتلألأ قصورها بالألوان الزاهية..وهم يميلون الهمزة..يقول السلطان حسن بن سرحان بأن وقت رحيلهم كان عند الأصيل وكان رحيلهم عن مدينة بيضاء ذات قصور منيفه..إلا أنه لا يرغب في سكن تلك القصور وكانت رغبته في العيش في الصحاري والقفار..

وقال:

رُحْنَا وَلاَكَنْ عَمَرْنَا مِدْينةْ .... وَلاَ الْشُقْةْ الْمرْيَىَ رَعَيْنَا قِفُورْهَا

يقـــول الســـلطان حســـن بـــن ســـرحان..رحنا..أي ذهبنـا..ولاكن..أي ولاكأننـا عمرنـا مدينـة..أي أننـا ذهبنـا عن هذه المدينـة ذات القصـور المتلألأة..وكأننـا لـم نبنهـا بالأمس..فهـذه سـنة الله فـي خلقه..وأضـاف.. **ولا الشـقة المريى رعينـا قفورهـا**..والشقة هـي منخفض رملـي بـين عرقين..والعـــــرقين همـــــا مرتفـــــع رملـــــي مســـتطيلان..والمنخفض الرملـــي بينهمـــا فـــي أرض مستوية..وجمعها شقاق[4]..وهـي فـي صـحاري الجزيـرة العربيـة..وهي منبـت للأعشـاب لمراعـي الإبـل..والمريى أي المستوية المنبسـطة..رعينا قفورهـا..بمعنـى ولا كأننـا رعينـا بجمالنـا فـي هذه الشـقاق المنبسـطة..والقفر بمعنـى الأعشاب المستوية النضوج ولم تكن بها إبلاً قبل إبل بني هلال.

وقال:

رحنا وخلينا حريب وشروره... لو كان عنده حجة ما يبورها

رحنـا وخلينـا حريـب وشـرورة..أي ذهبنـا وتركنـا حريـب وهـو اسـم منطقـة فـي محافظـة مارب..وشـروره أي مشـاكله.. **... لـو كـان عنـده حجـة مـا يبورهـا..**بمعنـى أن هذه المنطقة لو كان بها أي فائدة أو منفعة لـم تتركهـا بنـي هلال..وبورها..بمعنى كسادها..

وقال:

[4]) للتعريف بالشقة أنظر كتابنا "معجم الكلمات الشعبية في المناطق الشرقية".

بِلاَدٍ بَهَا عِيْسَى يَقُودْ حِصَانهْ .... لْو كَاَنْ عِنْدهْ حِجِةٍ مَا يِبُورَهَا

وأضاف.. **بلاد بها عيسى يقود حصانه**.. أي أن هذه البلاد موجود فيها الفقر..وهو عيسى..وعيسى كناية عن الفقر..وشبهه بأنه يقود حصانه..ويتردد في هذه البلاد..وأضاف.. **شباع حباريها جياع صقورها**..يقول فلذلك قرر الرحيل من هذه الأرض التي هذا وضعها..

وقال:

إن هَبَتْ الْعِليا فِغَيْثٍ وَرَحْمَةْ .... وإنْ هَبّتْ الْسِّفْلَى فَقَطّبْنَا حَدُورَهَا

هنا يشرح وضع بني هلال السابق باليمن وتنقلهم من جنوب الجزيرة العربية إلى شمالها تبعاً لسقوط الأمطار والرعي والكلأ..فيقول:

هبت العليا..الضمير فيها يعود للرياح والعليا الرياح الجنوبية ان هذه الأرض إذا يسر الله بها ريح ممطرة جنوبية..فهو غيث ورحمة من الله سبحانه وتعالى..**وإن هبت السفلى فقطبنا حدورها**..أي إن هبت الريح السفلى والسفلى هي الرياح الشمالية..فقطبنا..أي رحلنا..حدورها..الجهة الشمالية من الجزيرة العربية (وهذا البيت يثبت ماذهبنا إليه بأن بني هلال كانوا يتنقلون في صحاري الجزيرة العربية من شمالها إلى جنوبها تبعاً لسقوط الأمطار للنبت والكلاء)..

وقال:

وَطرَحْنَا وقيّةٍ وَرْس فِيْ حِيْدِنَا يَهَرْ .... ذَبّتْ ثَمَانْ سِنِيْنْ وَهِيْ فِيْ قُرُورَهَا

ووصف السلطان حسن بن سرحان شح الأمطار بهذه الجزيرة العربية فقال: حطيت..أي وضعت..والوقية هي الأوقية..وهي وحدة للوزن..والورس..هو مسحوق ذو لون أصفر تضعه النساء للزينة..ويضعه الرجال لزينة الخناجر..في حيدنا..أي في جبلنا..(ويهر إسم جبل في مرخة من أعمال محافظة شبوة – اليمن)..يقول السلطان حسن بن سرحان أنه ذات مرة عندما هبت عليهم الريح الشمالية رحلوا نحو شمال الجزيرة العربية من جنوبها..وقبل رحيلهم وضع رأس الجبل الذي إسمه يهر أوقية ورس..وأضاف.. **ذبت ثمان سنين وهي في قرورها**.. وذبت تعني مكثت لمدة ثمان سنوات..وهي في قرورها..أي لم يطرأ عليها أي تغير..ولم ينزل عليها مطر حتى تذوب..والمعنى يقول السلطان حسن بن سرحان..ولذلك يجب أن نرحل عن هذه الأرض التي يمر عليها ثمان سنوات لم ينزل بها الغيث..وضرب مثلاً بهذه الأوقية من الورس من أنها طيلة ثمان سنوات لم ينزل المطر على هذه الأرض حتى يذيب الأوقية من الورس فوجدها كما وضعها قبل ثمان سنوات..وذلك يبرر الرحيل عن هذه الأرض التي هكذا وضعها..قائلاً:

لاَهبّتْ الْعِلِيَا وَلاَ هَبّتْ الْسّفِلِىَ .... وَلاَ الْمِغْرِبِيّةْ سَقَى الله بَحورَها

حسن بن سرحان..إن في مدة الثمان سنوات هذه لم تهب الريح التي تأتي بالأمطار..**لا هبت العليا ولا هبت السفلى**..أي أنها لم تهب الريح الجنوبية المحملة بالأمطار والغيث..وكذلك لم تهب الريح

الشمالية..السفلى..وقال.. **ولا المغربية سقى الله بحورها**..وقال ولم تهب كذلك الريح المغربية..وطلب الله أن يسقي تلك الجهات المغربية التي قرر الرحيل إليها..وهو بذلك يقول لهم: هذه الأرض مرت عليها ثمان سنوات لم تهب عليها الرياح التي تأتي بالغيث من جميع الجهات..لا الشمالية ولا الجنوبية ولا حتى الرياح المغربية..وهو بذلك يبرر الرحيل للمثبطين عن هذه الأرض المجدبة الشحيحة الأمطار..

وقال:

وَحطَّيْنَا عَلىَ الْجَوْفَا ثَلاَثِيْنْ سِنَّــهْ .... عَلى دَامِرْ الهلتا إنْتَبعْ جِذُورَهَـا

يقول حسن بن سرحان: أنهم وضعوا على الجوفا، والجوفا اسم لبئر مورد مياه في منطقة السلان ثلاثين سنه، والسنه هي مكره من الخشب لنزع المياه من البئر، وقال: على دامر الهلكا، والهلكا هي الأشجار المتهالكة الناشفة من قلة الأمطار، إنتبع جذورها، أي لنطعمها لمواشينا عند الرحيل وقول آخر الهلتا ولها نفس المعنى.

وبعد مرور ذلك العام الذي قرره أبو زيد كمهلة للتموين والإعداد والتهيؤ رحل بني هلال من سكناهم مرخة وماجاورها..فلما وصلوا إلى مارب ولم يكن به آبار مياه للشرب غير بئر واحدة بمارب في جوار قصر السلطان شريف مارب..ولكن الشريف منعهم عن الماء إلا إذا أعطوه فتاة من بناتهم وجواد من خيولهم..فرضخوا للأمر الواقع وأعطوه زوجة صقر الهلالي وجواده..وإشترطوا عليه أن لا يمسها ولا يكشف وجهها

إلا بعد رحيلهم..فسقى القوم مواشيهم وتمونوا من المياه وعندما حان موعد رحيلهم أطلت زوجة صقر من شرفة القصر وقالت..

الْبَدوْ شَدّتْ وقَلّتْ ضَعَنْهَا ... شَدّوُ عَلىَ زُخْمْ الْذّفَارِيْ وِنْوقَهَـــــــــــــا

يَا أبوْ بِشْرْ مَاهَاضُوْكْ رَبْعِنْ تِقْلقَلَواْ...حِلْ الْضّحَى شَدّوْا جِمَالاً غُرُوبَهَا

تقول زوجة صقر موجهة كلامها للشريف وهو يكنى أبو بشر إن البدو قد شدت..أي رحلت..وقلت ضعنها..أي حملت أحمالها..وقالت: شدو على زخم الذفاري والذفاري هي الجمال الذكر..ونوقها الإناث..وأضافت: يا أبا بشر ما هاضوك..أي أما أثاروا مشاعرك ربعن..والربع هم الجماعة الأصحاب، تقلقلوا أي تهيؤ..حل الضحى..أي وقت الضحى..وهو قبل الظهر..وقالت: شدوا..أي ارحلوا على الجمال نحو الغرب..غروبها وقد أظهرت تبرماً من السلطان وطلبت منه أن يطلق سراحها لترحل مع قومها..فقال الشريف السلطان أبو بشر:

دَلِكْ الله إسْعَدِيْ وِانْعِمِيْ وِدَارٍ ظِلِيلة

عَلَى جَالْ ذَا الْنّخْلاَتْ دَنّتْ عِذُوْبَها

أي يقول الشريف..دلك الله أي أن الرأي السديد أن تجلسي معي وتسعدي وتنعمي بدار ظليلة أي بقصر منيف..وقال: على جال ذا النخلات..أي البساتين الغناء

من النخيل والجال هو الجانب من البساتين التي حان قطاف ثمارها..دنت عذوبها..
فقالت..

يَاَرْيتْ ذَا الْنَخْلاَتْ ذَوْدٍ شَوَايلْ

واشْرَبْ مَعَ الْبِدْوَانْ حَالِيْ غَبُوقْهَـــــا

شَفّيْ مَعَ صَقْرْ إبِنْ عَمّـــــــيْ

يَبَارِيْ الْهَجْمِةْ وَسَاعَةْ بِسَوْقَهَـــــا

قالت..ياريت وهي للتمني ياليت..هذه النخلات أي شجر النخيل إبلاً حوامل..ذود شوايل..وأضافت وأشرب مع البدوان حالي غبوقها..أي أتمنى أن هذا البستان من النخيل يصير إبلاً حتى أشرب مع البدو الحليب الحالي غبوقها..والغبوق هو شرب الحليب ليلاً..وأضافت: شفّي (أي رغبتي) مع زوجي صقر إبن عمي..الذي يباري..بمعنى يقود الهجمة وهي العدد الكبير من الإبل..وساعة يسوقها..أي يتبعها أحياناً أخرى.
وهنا تبين للشريف أبو بشر بأن المرأة متعلقة بزوجها صقر..فتحركت لديه المشاعر والعواطف الإنسانية وقرر إطلاق سراحها حتى تلحق بزوجها وأهلها كرماً منه وعفة وشهامة..والتفت إليها وقال:

وَالله إنّكْ صِرْتِيْ لِصَقْرْ مِنِّيْ عَطَيْةْ

عَطَيَّةْ ما تِنْثِنِيْ مِنْ مِرُوقَهَــا

أي يحلف بالله أنها صارت منذ الآن مطلقة السراح ويجب أن تذهب مع زوجها صقر منه عطية..أي هدية..وأضاف وهي هدية ما تنثني..أي ما ترجع من مروقها..بمعنى من نفاذها..

فقالت: وقد خافت أنه يرجع عن كلامه..

عَطَيّةٍ مَاحَدْ عَلَيْهَا بِحَاضِرْ

عَسَاكْ يَا زِبْنْ الْدّنَايَا مَا تِعوْقَها

تقول زوجة صقر: هذا كلام لم يحضره أحد حتى يشهد عليه..وأتمنى عليك أيها الشاجع الكريم ما ترجع عن كلامك..عساك يا زبن (والزبن بمعنى الملاذ للداني والقاصي)..**الدنايا** ما تعوقها..فأجابها:

مَاعُوقَهَا وَانَا الْشّرِيْفْ ابِنْ نَاصِرْ

كَمْ حَجْةٍ غِيْرِكْ قِدْ أحْمَيْتْ سُوقْهَا

يقول الشريف أبو بشر: ماعوقها أي لن أتراجع عن كلمتي..ولن يستطيع أحد أن يعيق ما تلفظت به وأنا ابن الأكابر من قريش..وكم حجةٍ أي كم قضايا غير هذه مرت عليّ وأنا عند كلمتي ولن أتردد عنها..**قد أحميت سوقها**..

وعندها ربطها بحبل وأنزلها من شرفة القصر..فلما قربت من الأرض سقط عنها البرقع وبان له وجهها كأنه القمر في ليلة تمامه..فندم عليها السلطان..ولكن بعد فوات الأوان فقد تلقفها أحد فرسان بني هلال كالأسد الكاسر

وأردفها على جواده وأنطلق خلف بني هلال الراحلين..فقال السلطان الشريف أبو بشر لإبنه الذي اسمه نجم عليك أن تنطلق خلف هذه المرأة وترجعها إلي قسراً فأنطلق نجم خلفهم فلما اقترب منهم نجم قالت لتحذره من المغامرة قائلة:

يَانَجمْ مَالِمّكْ مِنْ الْصِيّبْ غَيْرَكْ

وَأبْوكْ مَحْنِيْ عَلَى الْشِيّبْ لاَيِـــحْ

أحْـــــذَرْ مِنْ الأدْهَمْ فِيْ تَوَالِيْ رِكَابَنَا

أبوُ زِيْدْ فِيْ الْرِّدِةْ يَحبْ الْمَدَايْـحْ

أي يانجم..أنت وحيد أمك ولا لها غيرك..والصيب هم الذرية (الأبناء).. أما أبوك فهو رجل كهل كبير السن..ويجب أن لا تغامر بنفسك في المهلكة..فإنني أحذرك من الأدهم..أي الأسمر أبو زيد..فإنه دائماً يمشي خلف الركبان..**توالي ركابنا**..ليحميها من أمثالك..وهو أي أبو زيد في الردة وهي العودة في الكر والفر يحب المدايح..أي هو يحب المديح..وإذا رآك فلن تعود لأمك وأبيك سالما أي سوف يقتلك ولا يبالي..فلما سمعها نجم أخذ بنصيحتها وعاد سالماً..

فواصل بنو هلال المسير شمالا ثم عبر صحراء سيناء إلى بلاد المغرب برقة وقابس..فلما وصلوا صعيد مصر

أناخوا مدة من الزمن وواصلوا الرحيل مجتازين نهر النيل غرباً..وهذا ما سوف نعرفه في الفصل التالي.

الفصل الرابع

ما جرى لبني هلال من حروب وأهوال ببرقة وقابس

لما هبط بنو هلال أرض برقة[1] في أول الأمر جرت حروب ومعارك مع أهل برقة تغلب فيها بنو هلال على أهل البلاد الذين تحصنوا بالمدينة التي قد حصنت بالأسوار وكانت لها أبواب أغلقت من الداخل وضرب بنو هلال الحصار على هذه المدينة وطال حصارها دون طائل.. فاجتمع أكابر بني هلال وقادتهم لتدارس الأمر..قال السلطان حسن بن سرحان: أيها القادة والشيوخ نحن في حيرة من أمرنا أمام صمود هذه المدينة العنيدة التي لم نتمكن من فتحها ودعيتكم للاجتماع حتى نتدارس هذا الأمر العضال ونخرج بحل..قالوا: ليس لدينا حل غير الاستمرار في الحصار حتى تسلم لنا هذه المدينة أمرها..فألتفت السلطان حسن

[1]) برقة إقليم واسع خصب في القطر الليبي الشقيق اليوم، وهذا الإقليم ممتداً من الحدود المصريه بمحاذاة الساحل إلى قابس، وقابس في القطر التونسي الشقيق، ومركز برقة اليوم مدينة بنغازي وبنغازي اليوم مرفأ ليبياً على خليج سرت وتضم برقة الجبل الأخضر بلدة المناضل الشهيد / عمر المختار.

بن سرحان نحو أبي زيد وقال له مالها إلا أنت يا فارس بني هلال وعمودها الأشم..قال أبو زيد: حباً وكرامة..ويبدو أنه لم يبق معنا أمام هذه المدينة العنيدة غير الحيلة والمكيدة..قالوا: الأمر إليك يا أبا مخيمر..قال: أتركوني أفكر إلى يوم غد..فلما أتى اليوم التالي كان أبو زيد قد أعد خطة لدخول المدينة دون حرب حتى يتمكن من دخول الرجال محملين على الجمال في صناديق وجوالق مغلقة والخطة تقضي بأن يهيئ عدد من الجمال وكأنها عيراً أتت للتجارة من مصر وعليها مواد غذائية وأظهر بأن بني هلال سمحوا بدخول هذه القافلة بمناسبة قدوم شهر رمضان الكريم..وكانت خطة أبي زيد تقضي حملاً مواد غذائية حقيقية وحملاً آخر مكون من رجلين داخل عدلين وهي غراير أي جوالق..وهكذا كان عدد الرجال كثيراً..وقام أبو زيد وتنكر في زي تاجر مصري واخذ هذه الجمال في صعيد واحد أمام المدينة بأحمالها..وذهب إلى بوابة المدينة الرئيسية وقال لقائد الحرس بأنه تاجر مصري قدم من مصر في قافلة كبيرة

محملة بالمواد الغذائية للتجارة..وقال بأنه طلب من السلطان حسن بن سرحان سلطان هذه القبائل المحاصرة لمدينتكم الإذن لدخول هذه القافلة لخاطر دخول شهر رمضان..وأن السلطان الهلالي وافق بعد جهد جهيد..وأضاف بأنه يريد الدخول بهذه القافلة ففرح القائد فرحاً شديداً ما عليه من مزيد وأبلغ سلطان المدينة الذي فرح هو أيضاً وقال آذنوا لهذه القافلة بالدخول فعاد أبو زيد من وقته وساعته وأخذ الجمال متتابعة ومعه عدد من الفرسان في زي تجار ورعاة للجمال وكانوا مخبئين السيوف تحت ثيابهم..والرجال محملين على الجمال وكل فارس معه سلاحه كاملاً وجاهزاً...ودخلت القافلة وسط الزغاريد والأفراح وكانت عجوزاً واقفة مع الناس قد ارتابت في أمر هذه القافلة والحمول الذي عليها..وقالت:

هُو ذَا صَنْدَلْ أوْ ذَا حَدْيدِيْ..أوْ ذِهْ رِجَالْ مِحَمّلِهْ فْيْ الْغَرِيْرْ الْسّودِيْ

قالت هذه العجوز..**هو ذا صندل** أي هل هذا الحمول صندل؟ وهو عود الصندل المعروف أو **هذا**

حديد..وأضافت متسائلة..**أو ذه**..بمعنى أو هذه رجالاً **محملة في الغرير** والغرير مفردها غراره وهي الجولق..**السودي** هو لون الجولق أسود.

فلما سمعها أبو زيد التفت إليها وكان أبو زيد راكباً على جواد متنكراً في زي خيول التجار..فدهمها بالجواد فقتل العجوز وداس الجواد على جسمها حتى لا يسمعها أحد..فادعى أبو زيد بأن الجواد قد تعثر دون قصد منه..واستمر في المسير ولم ينيخ الجمال إلا تحت قصر السلطان..وبسرعة البرق عمد أبو زيد ويساعده الفرسان المرافقين بفك الأحمال التي بها فرسان بني هلال وهب الرجال المسلحون بالهجوم على قصر السلطان وسط ذهول المفاجأة..فلم يتعرضوا لأي قتال يذكر لأن جيش السلطان لم يكن على استعداد فدخل القوم القصر يتقدمهم أبو زيد فأجهزوا على السلطان وقتلوه وألقوا القبض على رجال دولته..فيما هب بعض فرسان أبي زيد نحو الأبواب وعملوا على فتحها من الداخل عنوةً..وكان بنو هلال في خارج الأسوار على أهبة الاستعداد للانقضاض

عند فتح الأبواب فهبت بني هلال بالدخول كالريح العاصفة من جميع أبواب المدينة..وتم لهم الاستيلاء على المدينة..وبعد أن قضا بنو هلال عدة أيام بهذه المدينة جهزوا أنفسهم وهيئوا خيولهم للذهاب غرباً نحو قابس وسلطنة الزناتي خليفة..وعند اقترابهم من المدينة التابعة للسلطان الزناتي خليفة أناخوا أثقالهم كعادتهم..وفي المساء أخذ أبو زيد سلاحه وذهب متنكراً لزيارة الأمير مرعي ابن السلطان حسن بن سرحان وزيارة الأميرة سعدى ابنة السلطان الزناتي خليفة بقصر الأميرة سعدى وكانت هذه الليلة هي المتممة للميعاد الذي قطعه أبو زيد على نفسه لمرعي وهو ثلاث سنوات وثلاثة أشهر وثلاث ليال..وقد حرص أبو زيد على الوفاء بالوعد..وكان يعد الأيام والليالي في كل وقت حتى يفي بوعده..فلما وصل القصر وجد القصر مغلقاً والناس نائمين..ودار حول القصر خلسة فوجد شجرة نخيل طويلة باسقة بمحاذاة شباك القصر الذي يجلس به الأمير

مرعي كل يوم لمراقبة الطريق انتظاراً لمقدم أبي زيد وبني هلال حسب الموعد..

فلما رأى الإضاءة في الشباك صعد النخلة متسلقاً حتى حاذى الشباك وجلس يتصنت في الوقت الذي كان الأمير مرعي يتسامر مع الأميرة سعدى..فسمع أبو زيد مرعي يقول للأميرة سعد يا سعدا هذه الليلة متممة للميعاد الذي ضربه لي الأمير أبو زيد..ولكن يبدو أن الرجل أخلف الموعد ولا كنت أظن أنه سوف ينساني ولكن الرجل ذهب وأنسته عليا الهلالية عني وقال:

سِعْدِىَ تَمَنّيْ لِشْ وَاَنا بَاَتَمَنَى

وأِنْ الْتّمَانِيْ تِغْدِيْ إلاّ هَبِيْلِهَـــــــا

وَكَمْ أتْمَنَى للْضّعِنْ يِومْ يِظْهَرْ
أبوْيْ فِيْهَا وِبِنْ رِزْقٍ دلِيَلَهَـــــــــا

وَاخْلَفْتْ بالمْيْعَادْ يَا وَلَدْ جَيّدْ

لا َتخْاَلَفوْا لحُكَامْ عِنِدَكْ تَفْصِيْلِهَـــا

رِيْتْ اللّحَى مَا تِبْدِيْ إلاّ لجَيّدْ

ولَنُذَالْ مَا تِبْدِيْ لِهَا إلاّ قِلِيْلِهَـــــــــا

أبو زيد لاَ تِلْهيْكْ عَلْيَا وِتِلْتِهْيْ

لَجْوَادْ مَا يِغْديْ مَعَ الْرِّيْحْ قِيْلِهَـــــا

يقول الأمير مرعي مواصلاً حديثه لسعدا.. **سعدا تمني لش وانا باتمنى**.. عليك يا سعدا أن تتمني وهو كذلك سوف يتمنى ويسرح بفكره حتى لو هذه التماني خيال يغدي أي يذهب مع الهواء وأن ذلك إلا للتسلية بدون طائل..**وأن التماني تغدي إلا هبيلها**..بمعنى أن ذلك ما هو إلا خيالاً أهبل..

وقال..

وكم أتمنى للضعن يوم يظهر ... أبوي فيها وبن رزق دليلها

يقول: كم أتمنى للضعف..والضعن (أثقال السفر من أثاث وعوائل يقال ضعن أو ضعينة إذا كانت امرأة أو جملاً

محملاً بالأثاث ونحوه)[1] يوم يظهر..أي عندما يظهر الركب الذي أنا منتظراً له بكل شوق..وانتظار وما أصعب الانتظار..وأضاف..**أبوي فيها وبن رزق دليلها**..أي أنه يتمنى أن تأتي تلك الركبان والجحافل الهلالية وأباه السلطان حسن بن سرحان في مقدمة القوم..وكذلك ابن رزق دليلها..وابن رزق هو أبو زيد الهلالي..وهو يكنى ابن رزق..إضافة إلى أن له كنى أخرى مثل: ابن سلامة وأبو مخيمر..وقال:

واخلفت بالميعاد يا ولد جيّد ... لا تخالفوا لحكام عندك تفصيلها

يقول مرعي وقد نفد صبره: إنك يا أبا زيد قد أخلفت..أي أحنثت أو نكثت بالوعد وأنت ابن الأجواد والأكابر من بني هلال..وأضاف وأنت بالتالي سيد العارفين إذا اختلف الناس في القضايا يرجع الناس لك في تفصيل الأحكام..فأنت المرجع لبني هلال ومن يفصل بين الناس

[1]) قال تعالى (يوم ؟؟) والضعينه الهودج كانت فيه امرأة أو لم تكن والجمع (ظعائن) مختار الصحاح.

في مشاكلهم ومثلك لا ينتظر درساً في الوفاء من أحد..وأنت المعول والملاذ لنا جميعاً..

وقال:

ريت اللحى ما تبدي إلا لجيّد ... ولنذال ما تبدي لها إلا قليلها

ثم عرج على شعر ذقن أبي زيد الذي أعطاه له قبل أكثر من ثلاث سنوات كرمز للوفاء بالوعد والعهد..وكانت في يد الأمير مرعي في هذه اللحظة..وكان يخاطب أبا زيد من خلال هذه الشعرات..وريت هي ليت للتمني واللحى هي الذقون..ما تبدي..أي ما تظهر إلا للأجواد الذين يعرفون قيمة هذه الذقون وشرفها وعزتها وكرامتها..وأضاف..أما الأنذال فإن مرعي يتمنى بأن لا تظهر لهم من شعر الذقون إلا الشيء اليسير..**قليلها**..

وقال:

أبو زيد لا تلهيك عليا وتلتهي ... لجواد ما يغدي مع الريح قيلها

ثم عرج على ارتباط أبو زيد بعليا واتهمه بأن علياء كانت سبب تأخيره عن موعده قائلاً: **أبو زيد لا تلهيك علياء وتلتهي**..لا تلهيك أي لا تشغلك..وتلتهي أي وتنشغل عني وعن موعدك معي..فذلك لا يليق بك..ولجواد هم الأجواد..ما يغدي..أي ما يذهب مع الريح قيلها..بمعنى لا يذهب كلام الأجواد أدراج الرياح..

كانت هذه الأبيات نابعة عن معاناة الانتظار وكانت عن اليأس الذي بدأ يدب في نفس الأمير مرعي عند تأخر أبي زيد عن المجيء فقد ساورت مرعي الكثير من الشكوك عن هذا التأخير وهو يعرف كثرة المثبطين والمتخاذلين..

كل ذلك وأبو زيد يسمع من على النخلة

فأجابه ابوزيد وهو لا يعرف بمكانه في هذه اللحظة قائلاً:

الْهَتْنِيْ الْقُوْمَانْ يَاكَمْ الْفَّهَا

تِوْحِيْ مَعَ الْنَجْدْ الْمسِمَّى ضِوْيِلِهَا

وَالْـهَتَنِـيْ الْقُومَانْ يَا كَمْ لِيْلِةْ

أبْوكْ فِيْهَا وِإبِنْ رِزْقٍ دِلِيْلِهَـــــــــــا

يقول أبو زيد: ألهتني أي شغلتني عنك القومان.وهم الفرسان. ياكم الفها..أي أجمعها. وتوحي..تسمع..مع النجد والنجد هو العقبة أو الممر الجبلي..المسمى الذي له اسم معروف..وضويلها..أي أصواتها..

ويقول أبو زيد:

والْهَتْنِيْ الْقُوْمَانْ يَا كَمْ لَيْلِةْ ... أَبُوكْ فِيْهاَ وإبِنْ رِزْقٍ دلِيْلِهَـــا

الهتني القومان..أي شغلتني القوم..يا كم ليلة..أي طول ليالي السنين الماضية وأنا أجمع القوم حتى أفي بوعدي..وقال..أبوك فيها..أي أبوك السلطان حسن بن سرحان في مقدمة القوم..وابن رزق..أي أبو زيد..دليلها..وهو رائدها وهو الأعرف بمسالك الطرق ومفازاتها..فلما سمعه مرعي فرح فرحاً شديداً ما عليه من مزيد..وكذلك الأميرة سعدا..كان فرحهم بقدوم أبي زيد لا يوصف..وخاصة وأنه أكد لهم في أبياته الشعرية

وصوله مع القوم جميعاً بما فيهم السلطان حسن بن سرحان..

ثم نزل أبي زيد من النخلة وفتحت له الأميرة سعدا الباب الخلفي للقصر ودخل وتسامر مع مرعي وسعدا وطلب مرعي من أبو زيد أن يحكي له عن ما جرى له في غيابه وسفره فحكا له عن معاناته وبذله المجهود في إقناع بني هلال إلى المجيء إلى هذه الأرض البعيدة رغم المثبطين والمتخاذلين فقال مرعي:

باقُولْ بَكْ حَيّاَ وَبَاقُولْ بَكْ مَرْحَبَا

عِدَّة شَمَعْ بِيْشِةْ وِعَدِةْ نِخْيلِهَـا

يقول مرعي من فرط فرحه بأبي زيد وبأخباره السارة أنه يرحب بأبو زيد عدد أشجار بيشة وقال عدة شمع بيشة وعدة نخيلها..والشمع نوع من العشب لا يحصى عدده..وعدد النخيل..ومنطقة بيشة الحجازية مشهورة بكثرة النخيل..فقال مرعي: هل تخلف أحد من بني هلال باليمن لم يرحل معكم..فقال أبو زيد شعراً:

رُحْتْ وَلاَ خَلّفْتْ عُقْرِيْ ذِخِيّرِةْ

إنْ كُونْ عَلْيَا مِنْ خِيَارْ الْذُّخَايِـــــــرْ

وِرُحْناَ وَخَلّيْنَا الْنسِّيْيْن سربـــــة

طِوَالْ الْقَنَا يلْقُونْ طَعْنْ الْعَبَايِــرْ

وَرُحْنَا وَخَلّيْنَا خَلِيْفِةْ ابْن عُلْبَةً

لِهَ كَرِمةٍ هَدْلاَ وِلِهْ كُونْ جَايِـــــــرْ

يقول أبو زيد: رحت..أي ذهبت ولا خلفت أي ولم أترك عقري..أي خلفي..ذخيرة..من الادخار الثمين..إن كون أي باستثناء علياء وهي من خير الذخائر..والمقصود الشيء الثمين المدخر (وهو هنا لا ينسى علياء في كل المواقف، فهما كقيس وليلى وكثير وعزة و جميل وبثينة)..

ورحنا وخلينا النسيين سربـــــة ... طوال القنا يلقون طعن العبايــر

ثم أضاف: ورحنا أي ذهبنا..وخلينا..أي تركنا..النسيين سربة..والنسيين هو اسم لقبيلة هلالية مشهورة إلى اليوم في وادي مرخة من أعمال محافظة شبوة اليمن..سربة..بمعنى كثيري العدد..طوال القنا..أي طوال الرماح..يلقون..أي يُحدثون..طعن العباير..أي الطعان الشديد برماحهم الطويله التي يفعلون بها الأفاعيل عند الطعن والضرب في الحروب..وهم معروف عنهم الشجاعة وشدة البأس..وقال:

ورحنا وخلينا خليفة ابن علبة ... له كرمةٌ هدلا وله كون جايـــــر

وقال: واصفاً أيضاً القبيلة الهلالية الثانية التي اسمها خليفة..رحنا..اي ذهبنا..وخلينا..أي تركنا..خليفة إبن علبة..وهو اسم جد هذه القبيلة..وقال..بأن له كرمةٌ هدلا..أي بأن هذه القبيلة موصوفين بالكرم..وأضاف..ولهم أيضاً كون جائر..أي أن لهم جروحاً بليغة في الأعداء جائرة وشديدة ويوصفون بالشجاعة والكرم

فتسامروا حتى طلع الفجر..فخرج أبا زيد قبل طلوع النهار حتى لا يكتشف أمره وعاد إلى بني هلال وجلس إلى السلطان حسن بن سرحان وقص له خبره في ليلته..قال له: بارك الله فيك..وزاد الرجال من أمثالك..ودعى لبني هلال بالنصر..

وعند ظهيرة ذلك اليوم خرج أبو زيد مع كوكبة من فرسان بني هلال لاستطلاع الأرض فوجد رجلاً نائماً بظل شجرة فنزلوا عن خيولهم دون أن ينتبه الرجل وأحاطوا به بسيوفهم وأيقظوه من منامه ففزع منهم لما رآهم في وضع قتالي فاستسلم لهم وإذا هو عبد من عبيد السلطان الزناتي خليفة يعرفه أبو زيد من سفرته الأولى..فسأله أبو زيد ما الذي أتى به إلى ظل هذه الشجرة..فقال أنه أتى قانصاً للصيد البري أرسله السلطان الزناتي خليفة..وأضاف بأنه لم يجد شيئاً من الصيد وأدركه الإعياء والتعب ونام في ظل شجرة..فسقوه ماءً وسأله أبا زيد عن جيش الزناتي وعن سلاحه وعدده فامتنع العبد عن البوح بأي شيء عن

أسرار الجيش..فقال أبو زيد أعطوه أكلاً فأعطوه وامتنع عن الأكل..فقال أبو زيد: لا بد أن تأكل..فامتنع فلكزه أبو زيد بقبضة يده..فكسر له ساعده..فقال أبو زيد: اذهب لسيدك وقل له أننا أتينا بجيش عرمرم لا قبل له به وأن عليه أن يفتح بلاده لنا ويقدم لنا الطاعة قبل أن ندخلها عنوة قال: العبد حباً وكرامة يا سيدي..فلما وصل العبد إلى السلطان الزناتي خليفة وقد كان منتظراً لوصوله باللحم..فلما لم ير معه لحماً قال:

وَرَاكْ يَا قَنّاصْ مَا جِبْتْ لَحْمِهْ

قِدْنِيْ لِلَحْمْ الْجاَزِيَاتْ مِفِيق

يقول السلطان الزناتي خليفة **وراك**. أي ماذا وراءك..**ياقناص**..ايها القانص..**ما جبت**..لم تأتي..**لحمه**..**قدني للحم الجازيات مُفِيقّ**..والجازيات الصيد البري الذي يتجاوز الرقم القياسي في عدم شرب الماء..فهم يقولون..جازي..وجمعها جازيات أو

جوازي..وأضاف بأنه لذلك اللحم مُفِيقّ..أي جائعاً ومشتهياً له..

فأجابه العبد قائلاً:

يَاسِيْـــــــدْ قَيّلْتْ فِيْ ظِلْ سَرْحَةْ

وَمَا لِقْيتْ مِنْ عِيْدَانْهُمْ طِرِيْـــــــقْ

أبو زِيْـــــدْ دِزّنِيْ دَزّة كَرَامَةْ

وخَلَّى الْعِظَامْ الْسَّاعِدِةْ دقيق

عَسَـــــىَ يَا ذَا الْقُوْم تِطِيْعُوْن عَارِفْ

لْنهرَبَ ونَجَدْ لَنَا فِيْ الْبْحُورْ طِرِيْقْ

يقول العبد: ياسيد..أي يا سيدي..قَيّلْتَ..أي خلدت إلى الراحة وقت القيلولة والسرحة نوع من الشجر وارفة الظلال وما لقيت..أي لم أجد..من عيدانهم..أي من رماحهم طريق..أي منفذ..فهو يقول يا سيدي..بحثت عن صيد فلم أجد..فأنهكني التعب واستظليت بظل

شجرة..وما راعني إلا رماح القوم في وضعية قتالية..وأضاف:

أبو زِيْـــــدْ دِزِّنِيْ دَزِّة كَرَامَةْ ... وَخَلَّى الْعِظَامْ الْسَّاعِدِةْ دِقِيْـــــــــــــــقْ

أبو زيد دزني..أي لكزني..دزة كرامة..أي لكزة كأنها من الكرم حتى آكل..وخلى..أي ترك..عظام ساعدي دقيق..أي مكسرة..فهو يقول بأن أبا زيد لكمه بقبضة يده فكسر عظام ساعده..وهو يريده أن يأكل..دزة كرامة..وقال:

عَسَـــــىَ يَا ذَا الْقُوْم تِطِيْعُوْن عَارِفْ ... للْهرَبَ ونَجَدْ لَنَا فِيْ الْبْحُورْ طِرِيْقْ

ثم أضاف..وقد أراد أن ينصح السلطان وقومه لما رآه من قوة بني هلال وقد تملكه الخوف والرعب..عسى..أي أتمنى..أيها القوم..أن تطيعون عارف..أي تطيعونني وأنا من رأى وعرف قوة بني هلال في يومي هذا..للهرب..أي بأن نهرب بإتجاه البحر الذي سوف نجد به طريقاً..فهذه الجيوش والجحافل الهلالية ليس لكم قبلاً بها..

فلما سمع السلطان ما قاله العبد تأكد لديه بأن العبد قد تملكه الرعب والهلع وقد أخذ منه الخوف كل مأخذ..فخاف أن يسمعه الناس ويبث في أوساطهم الخوف أيضاً فقرر حبسه حتى لا يسمعه أحد..فأمر بالقبض عليه وإيداعه سجن منفرد واخفائه عن الأنظار حتى يناجز القوم..فقام من وقته وساعته بشب نفير الحرب وعمل على تجهيز الجيش وتفقد السلاح والخيول وأخذ الاستعداد للحرب وكان السلطان الزناتي خليفة رجلاً بطلاً شجاعاً مهاباً وله شنبات كبيرة قيل أنه كان يربط بها جواده..وله صوت جوهري لا يشبهه فيه أحد وذو جسم طويل ممتلئ..وفي اليوم التالي استعدت بني هلال وتهيأت للقتال..واجتمع أكابر بني هلال وشيوخها في صيوان السلطان حسن بن سرحان لتدارس الأمر وبحث شئون الحرب التي سيخوضونها مع الزناتي خليفة..فقال السلطان حسن بن سرحان: من الحكمة والرأي أن نجعل الإبل والعوائل والأثقال في الخلف بعيداً عن المعارك ويجب أن نوكل لحراستها رجلاً منكم أيها القادة..قالوا

ونعم الرأي..فقال السلطان حسن بن سرحان: مالها إلا أنت يا ذياب بن غانم..قال ذياب: حباً وكرامة..فأوصاه السلطان بالحرص وحفظ الإبل عن الأعداء وهي اعتمادهم عليها قائلاً:

إلَبِـــــلْ يَا ذِيَابْ بِنْ غَانِمْ
وَصَاتينْ مَا هَيْ بوَصَـــــــــــــــاةْ

تَضُمْ ضِعِيْفِنَا وِتِقْضِيْ دِيُونَنَا

وِتَقْطَعْ بِنَا جَواً بِعِيْدْ حَفَاةْ

يقول السلطان حسن بن سرحان: إياك والإبل أيها الأمير ذياب بن غانم..وصيتين وليست وصية واحدة..أي احرص عليها كل الحرص..فهي تضم..أي تحفظ ضعيفنا..أي أهلنا وعوائلنا وأطفالنا وشيوخنا..وأضاف: وتقضي ديوننا..أي تسدد ما علينا من ديون إذا احتجنا إلى ذلك..وأضاف: وتقطع..أي تجتاز..بنا جواً..والجو هو المنخفض الصحراوي الواسع في المفازات البعيدة والقفار..فالإبل (**سفينة الصحراء**)..

فأجابه الأمير ذياب بن غانم قائلاً:

وَصّيْتْنِيْ فِيْ الْبِلْ وَقَلْبِيْ مِوَلّعْ ... وَلاَ عَادْ فِيْ عُوجْ الْرِقّاَبْ وَصَاةْ

يقول ابن غانم: وصيتني..أي حثيتني..في حفظ الإبل..وهي الإبل والمقصود هنا حمايتها والحرص عليها..وقلبي مولع..أي كنت أتمنى أن أكون معكم في وسط معمعة المعارك..فقلبي مولع بالحرب والطعان والضرب..ولكن لطاعتك أيها السلطان سوف أنفذ ما أمرتني به..وأضاف: **ولا عاد في عوج الرقاب وصاة**..وعوج الرقاب هي الإبل..والمقصود هنا من هذه الساعة بأنك أيها السلطان تطمئن فهذه الإبل لا تحتاج إلى وصية فسوف أعمل على حفظها وحمايتها من الأعداء.

وهنا قبل المهمة الأمير ذياب بن غانم فأخذ الإبل والمواشي والأثقال والعوائل والأطفال والشيوخ والمرضى وسار بهم مع كوكبة من الفرسان للحراسة بقيادة ذياب بن غانم إلى المراعي والقفار بعيدةً عن

أرض المعركة..وأما ما كان من خبر القوم فقد تهيأت بنو هلال ولبست عدة الحرب وكانوا في هيئة عظيمة وكذلك فعل السلطان الزناتي خليفة كان في جيش عرمرم عظيم..فسار بنو هلال للقاء السلطان الزناتي خليفة للتفاوض..والتقوا مع السلطان الزناتي وقد أرادوا أن يساوموه لعله يفتح لهم بلاده سلماً..فلما التقى الجيشان قال السلطان حسن بن سرحان لأبي زيد: أيها الأمير عليك أنت أن تتولى السلام والمحادثة مع السلطان الزناتي خليفة فأنا اليوم أشعر بأنني متعب ومرهق..قال حباً وكرامة..فلما وقف الصفان وجهاً لوجه..خرج أبو زيد عدة خطوات عن صف بني هلال قائلاً:

سَلاَمْ مِنِّيْ عَلَى الْخَيْلْ وَالْقَنَا

وَانْتُوا قُوِيْتُوْ يَاذِيَابْ الْمَغَارِبِـةْ

يقول أبو زيد: السلام عليكم وعلى الخيل وكذلك على القنا..أي الرماح..وأضاف..وأنتوا قُويّتوا..وهي لهجة

تتبع السلام..وقال يا ذياب المغاربة..أي أيها الذئاب من أهل المغرب..

فأجابه السلطان الزناتي خليفة:

لاَ قُولْ بَكْ حَيًّا وَلاَ قُولْ مَرَحَبَا

مِنَيْنْ جِيْتُوا يَا ذِيَابْ الْمَشَارِقِــةْ

يقول الزناتي خليفة أنه..لا يقول أهلاً ولا مرحبا..وسألهم..منين جيتوا..أي من أين أقبلتم أيها الذئاب من المشرق العربي..وماذا أتى بكم إلى بلادنا..فأنتوا ليس محل ترحيب..فأجابه الأمير أبو زيد:

نَبَا سعدا لِمِرِعْي زَوَاجةْ

مِنْ مَيْدّ نِتْقَارَبْ وَنَغْدِيْ نَسَايْبِهْ

يقول أبو زيد: أننا جئنا نريد أن نزوج الأمير مرعي ابن السلطان حسن بن سرحان بالأميرة سعدا إبنة السلطان الزناتي خليفة..وأضاف..من ميد..أي من أجل..نتقارب

ونغدي نسايبه..أي أن تكون بيننا صلة قرابة ونسب وصهارية..

فأجابه السلطان الزناتي قائلاً:

مِنْ دُونْ سعدا الْتّركْ تَجَذَّىَ خِيْولْهُمْ

كَنْهَا لْخِفَاجِيْ يَومْ يِجذيِّ ذَوَايْبهْ

مَاكَلمَـــــكْ يَا عَبْدِنَا الْعَامْ لَوّلْ

خَلْ إبِنْ سِرْحَانْ يَجاَوِبِنيْ وَأنَا أجَاوْبِـــهْ

يقول السلطان الزناتي خليفة..**من دون سعدا الترك تجذى خيولهم**..أي أن ذلك يكلف ضحايا كثيرة حتى لو كانت معكم قوة الأتراك من خيول وسلاح فإن ذلك لا يخيفنا..وسوف تقطع رؤوساً كثيرة ليس لها عدد..وأضاف..كنها أي كأنها أي الرؤوس شعر الخفاجي..وهو الخفاجي عامر البطل والفارس المعروف وكان مرافقاً لبني هلال وله ذوائب من الشعر طويلة..وهو مشهور..وقد رآه في صف بني

هلال..فالزناتي يقول..تلك الرؤوس التي سوف تسقط في سبيل سعدا كأنها شعر الفارس الخفاجي عامر في عددها وتساقطها عندما يحلقها..وأضاف:

مَاكَلمَـــــكْ يَا عَبْدِنَا الْعَامْ لَوّلْ

خَلْ إبِنْ سِرْحَانْ يَجاَوِبِنيْ وَأنَا أجَاوْبِـــهْ

أي أنا لن أكلمك أيها العبد لدينا بالأمس..وهو يشير إلـئ أبو زيد كان في سفرته الأولى منتحلاً شخصية عبد بقصر السلطان..فهو يذكره بذلك ويقول لن أكلمك أيها العبد وقد كنت لنا عبداً ترعى مواشينا أضاف..خل أي اترك..السلطان حسن بن سرحان يجاوبني..أي يكلمني..وأنا أجاوبه..أي أكلمه..فأنا لن أتنازل لك..أما السلطان حسن فهو نظيري..فأجابه أبو زيد قائلاً:

أنَا أبو زيدْ وَأنَا أبو مِخَيْمرْ

أنَا عِفَادْ الْخَيلْ والْخَصْمْ أحَارِبْـــــــــــهْ

الْوَعْد واِلْمِيْعَادْ شَرقِيْ قَابِصْ(1)

مِنْ لاَ حَضَرْ فِيْ الْوَعْدْ حَسْنْ شَارِبِهْ

يقول أبو زيد..وقد استشاط غضباً من ترفع السلطان الزناتي خليفة ووصفه بالعبد..فقال..**أنا أبو زيد وأنا أبو مخيمر**..الكل يعرفني حتى أنت تعرف من أنا أيها السلطان..وأضاف..**أنا عفاد الخيل**..وعفاد الخيل هو مهلك الخيل أو متعبها..وأضاف..والخصم أحاربه..أي العدو..أقاتله ولا أبالي..ثم أضاف...

الْوَعْد واِلْمِيْعَادْ شَرقِيْ قَابِصْ

مِنْ لاَ حَضَرْ فِيْ الْوَعْدْ حَسْنْ شَارِبِهْ

يقول أبو زيد. وقد عزم على موعد للحرب عندما رأى من السلطان الزناتي خليفة الجفاء والعزم على الحرب..قال: الموعد بيننا في الموضع الذي يقع شرقاً عن قابس..وهم ينطقون قابس بالصاد بدلاً من السين..وأضاف..**من لا حضر**..أي الذي لا يحضر موعد الحرب هذا..**حسن شاربه**..أي يحلق شواربه..وذلك

(1) وقابص هي قابس وهي إقليم واسع بشرق تونس متاخم لليبيا، ويشمل خليج قابس ومركزها اليوم مدينة قابس، وهي مرفأ تونسي على خليج قابس البحر الأبيض المتوسط، ومن أهم مناطقها اليوم جربه، وهي جزيرة في خليج قابس وكذلك بها مدينة صفاقس.

عندهم أكبر العار أن يحلق الرجل شاربه..وهو بذلك يعرّض بشنبات السلطان الزناتي خليفة المضروب بها المثل في الطول..

وهنا افترق القوم على أن يلتقيا في اليوم التالي في موضع يقع شرقاً عن قابس..فلما جاء صباح اليوم التالي تأهب القومان واستعد الطرفان فالتقت الجيشان وتقاتلا قتالاً شديداً طول النهار..فلما حل المساء افترقا..وقيل أن في هذا اليوم الأول للمعركة لم يكن أبو زيد معهم لوعكة صحية ألمت به..وموضع الحرب قريب من المدينة التي بها قصور السلطان..بحيث كان الأمير مرعي يشاهد أرض المعركة من على شرفة قصر الأميرة سعدى..ولكنه كان لا يظهر لأنه كان مخفياً..فكانت الأميرة سعدا هي التي تشرف وتظهر من على شرفة القصر وكان يسألها عن وضع المعركة فتقول له فيه اطراد وتعادل..والمعركة عادية..فقال لها إذن لم يكن معهم أبو زيد..ولم يدخل المعركة بعد..فلما جاء اليوم التالي التحم الجيشان مرةً أخرى..وفي منتصف النهار

كانت ..الجازية..وهي أخت السلطان حسن بن سرحان تراقب وضع المعركة..ورأت ترجيح كفة جيش السلطان الزناتي خليفة..فتوجهت إلى أبي زيد وقالت..تنخاه أي تحثه قائلةً:

أبو زيدْ يَا ابِنْ عَمِّيْ أهْرِيْ بَكْ

عشْرْ فِيْ أثر عَشْرَ وَالْتَقَتْ عِشِرِيْنْ

وَالْعَشْرْ لُخْرىَ فِـــــــــــــيْ

تَوالِيْهَا الْعَجَـــــــــــــــبْ

وتقول الأميرة الجازية..أيها الأمير أبو زيد يا ابن عمي..أهري بك..أي أنتخي بك.. أهتف بك..أي أنادي عليك استغيث بك..اليوم يومك..أنتخي بك عشر مرات مضروبة في عشر..ثم في عشرين

مرة..وأضافت..والعشر الأخرى..أي التالية..في تواليها..أي في أواخرها العجب..والعجب من العجائب..والأفراح التي سوف تأتي عند النصر على جيش السلطان الزناتي خليفة..فلما سمع أبو زيد هذه

الأبيات الاستغاثية التي تشحذ الهمم هب واقفاً وامتطى صهوة جواده وانطلق نحو المعركة فدخل

المعركة..وغير موازينها لصالح بني هلال....وكان قتالاً شديداً..وكان الأمير مرعي يسأل الأميرة سعدا عن وضع المعركة في هذا اليوم..فقالت: قتالاً شديداً لم أرى مثله من قبل..الفرسان تتطاير رؤوسها والخيل كأنها جذوع النخل مرمية على الأرض..قال الحمد لله..إذن أبو زيد دخل المعركة..فلما حل المساء افترق الجيشان..

وفي المساء..استعرض بنو هلال سير المعارك في الأيام الماضية وقالوا لأبي زيد: أن هذا السلطان الزناتي خليفة شجاع وبطل صنديد..وهو يمتطي جواداً قوياً وهذا الجواد عندما يحمي الوطيس يطلق صوتاً -صهيلاً- ..حتى أن الخيل الإناث (تسيح) أي تتأثر جراء صوت الحصان مما يخل بسير المعركة..فعندما يقف الفارس الهلالي يقتله السلطان الزناتي خليفة يقتله بسهولة..وطلبوا من أبي زيد يعمل على حل هذه الإشكالية..ففكر أبو زيد وهو صاحب مكيدة وحيلة

وقال..الحل عندي أيها الرجال الأبطال..قالوا وما هو..قال..غداً سوف نأخذ قطناً ونحشيه في أذان الخيل..ونربط عليه بخيط محكم حتى لا تسمع الخيل صوت حصان السلطان الزناتي خليفة..قالوا: والله يا أبا زيد لقد وجدتها..وقاموا من ساعتهم وأحضروا القطن وفي الصباح أخذ كل منهم القطن وحشي أذني فرسه بالقطن وربط عليه وتهيأت القوم واستعدت للمعركة والتقى الجيشان وتلاحما في قتال شديد..وعندما حاول الزناتي خليفة إستخدام سلاحه السحري الذي جربه طيلة الأيام الماضية من الحرب ألا وهو صهيل الحصان إلا أن الحصان كلما صهل كعادته لم تتوقف خيل بني هلال ولم تتأثر بصوته..فصال وجال أبو زيد وعمد فيهم قتلاً وثار الغبار وضجت القوم بالهرج والمرج فأطلت سعدى من شرفة القصر وقال لها مرعي: ماذا ترين..قالت كأنها عجة في الأرض وكأنها نجوم في السماء..قال إذن هذه هي معركة أبو زيد..فأرتجز الأمير مرعي قائلاً:

عِيْنِيْ عَلىَ أبو زِيْد فَيْ الْحَـــــرْب رَدِّةْ

سِتِّيْن رَاجِعْ طِلّقْتْ مِنْ رَجِالْهَـــا

وَعِيْنِيْ عَلىَ أبو زِيدْ فَيْ الْحَــربْ رَدَّةْ

سِتّينْ مُهْرَةْ خِلِّسَتْ مِنْ قَذَالْهَـــا
وَعَيْنِيْ عَلىَ أبو زيد في الحرب ردة

سِتّينْ كُلْ مَا قِدْ نَعَتْ فَيْ عِيَالْهَـــــــا

يقول الأمير مرعي ابن السلطان حسن بن سرحان..**عيني** وهي لهجة للثناء والمديح..**على أبي زيد في الحرب ردة**..أي الكر والفر الذي يتميز به أبو زيد..وأضاف..**ستين راجع**..والراجع هي الأرملة التي طلقت من زوجها بقتله على يد البطل أبو زيد..وأضاف:

وَعِيْنِيْ عَلىَ أبو زِيدْ فَيْ الْحَــربْ رَدَّةْ ... سِتّينْ مُهْرَةْ خِلِّسَتْ مِنْ قَذَالْهَـــا

الشطر الأول سبق شرحه..وقال **ستين مهرة**..والمهرة هي أنثى الخيل صغيرة السن..**خلست من قذالها**..بمعنى خلس عنها خطامها..**وقذالها**..رأسها..وذلك من شدة بأس أبي زيد البطل المغوار..وأضاف:

وَعَيْنِيْ عَلىَ أبو زيد في الحرب ردة ... سِتّينْ كُلْ مَا قِدْ نَعَتْ فَيْ عِيَالْهَـــــــا

والشطر الأول سبق شرحه..وقال..**ستين كل ما قد نعت في عيالها**..والمقصود هنا الثكالا من أمهات قتلى أبي زيد..فهو بذلك يمدح أبا زيد ويعدد ضحاياه من الأعداء وخيولهم ويتمنى له النصر..

وفي المساء اجتمع أكابر بني هلال وشيوخهم في صيوان السلطان حسن بن سرحان وتدارسوا وضع المعركة بيومهم وفي الأيام السابقة..وأثنوا على الأمير أبو زيد وأشادوا باكتشافه بطلان سلاح الزناتي وهو صهيل الحصان وتعجبوا من فطنة أبي زيد ودهائه..وفي صباح اليوم التالي تأهب القوم للقتال وقد كانت معنويات بني هلال مرتفعة بوجود أبو زيد الهلالي على رأس قيادتهم..وأصطف الطرفان وبرز أبو زيد بين الصفين ونادى على الزناتي..أنا أبو زيد قاتل الأبطال ومرمل النساء هلا برزت إليّ أيها السلطان؟..فقال الزناتي..أنا الزناتي خليفة مجندل الأبطال في ساحة الوغى

والقتال..أما أنت أيها العبد النحس الذي جلبت لنا المصائب وكان ظهورك لنا نحس وشؤم وما دام أنت برزت إلي في الميدان فلا بد من الخلاص منك لأنك رأس المصائب..فكر على أبي زيد كأنه أسد كاسر..فتلقاه أبو زيد كأنه وحش هادر والتقيا في الميدان فصالا وجالا وتكسرت بينهم الرماح وتثلمت بينهم السيوف وانطبق الصفان على بعضهما البعض وأمضوا يومهم في كر وفر حتى غربت الشمس وهكذا اليوم التالي..وعلى تلك الوتيرة عدة أيام وقد خسرت بني هلال الكثير من أبطالها ومنهم مرافقهم الخفاجه عامر وهو ليس منهم ولكنه رافقهم من اليمن..وكان بطلاً صنديداً تضرب به الأمثال في الشجاعة وقوة البأس..

وفي أحد الأيام فكر السلطان الزناتي خليفة في حيلة يتخلص بها من الأمير أبو زيد الهلالي قتلاً أو أسراً وذلك بأن رسم خطة بحفر حفرة في الأرض عميقة وغطاها بقماش وذر التراب على القماش على أن يبرز لأبي زيد في ساحة الميدان..وعندما يحمى الوطيس بينهم

يلوذ بالفرار نحو بوابة المدينة وتلك الحفرة قريبة من البوابة من جهة ميدان المعركة وبالتأكيد سوف يتبعه أبو زيد على جواده والزناتي خليفة سوف يمر من جانب الحفرة ومن ثم فأبو زيد سوف يتبعه بحيث يهوي داخل الحفرة مع جواده وهنا يطبق عليه الفرسان لقتله أو أسره..وحصل له ما أراد فلما تعثر الجواد بالحفرة إلا أن أبا زيد البطل الصنديد لما وقع الجواد في الفخ أدرك الأمر بأنها خدعة ونهض بسرعة البرق شاهراً سيفه ذاباً به عن نفسه وترك الجواد لمصيره وخرج من الحفرة بسرعة أذهلت الزناتي وجيشه..واستطاع الإفلات من القوم بأعجوبة..فانطبق الصفان على بعضهما البعض في قتال شديد حتى حل المساء..وفي المساء اجتمع أكابر بني هلال وشيوخها لدى السلطان حسن بن سرحان كعادتهم وهنأوا الأمير أبو زيد بالسلامة ومتسائلين عن ما حصل له..فأخبرهم الخبر وهنا فكر أبو زيد في خدعة يتخلص بها من السلطان الزناتي خليفة بعد هذه المحاولة الفاشلة من هذا الأخير..وفي المساء تسلل بجوف الليل

متنكراً إلى قصر الأميرة سعدى بنت السلطان الزناتي ليقابلها مع الأمير مرعي ابن السلطان حسن بن سرحان وعندما اجتمع بهم طرح عليهم موضوع الخدعة وكانت سعدى متعاونة معهم إلى حد التآمر على أبيها لحبها للأمير مرعي وطموحها بأن تتزوج منه وتدارس معهما موضوع الخدعة فقال لسعدى أريد أن تعملي على دهن ظهر حصان السلطان الزناتي خليفة بمادة أحضرها معه من الجزيرة العربية وهي (الخوقر) والخوقر هي مادة من ثمر شجرة السدر قبل نضوجه..وهي مادة لزجة..وهذه المادة عندما يدهن بها ظهر الحصان فسوف تذوب مع عرق الحصان الذي سوف يعمل على تذويبها والحصان لن يعرق إلا عندما يحمى وطيس المعركة..وعندها سوف ينزلج سرج الحصان وبالتالي سوف يقع السلطان الزناتي على الأرض فيقتله أبو زيد أو يأسره..قالت سعدا حباً وكرامة يا أبا زيد لا بد أن أنفذ هذا الأمر بنفسي..وغادر أبو زيد القصر متسللاً كما دخل أما سعدا فقد أعدت هذه المادة وعملت على

تحضيرها ثم أحضرت مادة الحناء في إناء لحاله وكأنها سوف تعمل حناء لحصان أبيها..(وعادةً ما تزين الخيول بمادة الحناء) احترازاً من اكتشاف أمرها..فخرجت مع جاريةً لها حتى دخلت إسطبل الحصان فدهنت ظهره بهذه المادة ووضعت نقاط من الحناء على جسم الحصان غير الظهر وعادت إلى قصرها و أخبرت الأمير مرعي بتنفيذ الخطة..وفي الصباح تأهب القوم للقتال من الجانبين وامتطى السلطان الزناتي خليفة جواده كعادته وعندما رأى نقط الحناء على جسم الحصان قال في قرارة نفسه هذا حنا للزينة ولم ينتبه للخدعة..لا سيما وأن هذه المادة تشبه مادة الحناء..فركب الزناتي خليفة في قومه وركب أبو زيد في قومه وتقابلا..فقال أبو زيد أيها السلطان أبرز لي نتقاتل أنا وأنت في ساحة الميدان ولا داعي لقتال هذه الأقوام..قال الزناتي أنا والله أشوق لقتالك أيها العبد النحس..فكر عليه الزناتي كأنه أسد كاسر وتلقاه أبو زيد كأنه وحشٌ هادر..وتقاتلا حتى كلت منهم الأيدي..وما هي إلا ساعة من الزمن حتى طلع عرق

الحصان (وأذيبت مادة الخوقر) وأبو زيد حرص أن لا يترك فرصة للزناتي بل كاراً عليه باستمرار ليضايقه حتى يقع..فلما أذيبت المادة تماوج سرج الحصان واختل توازنه وأدرك الزناتي أنه سوف يقع فأثنى عنان حصانه نحو قومه للهرب..وما هي إلا خطوات حتى وقع الزناتي على الأرض..فكرّ عليه أبو زيد يريد أن يقتله وهوى عليه بالسيف إلا أن قوم الزناتي هبوا بسرعة فائقة لإنقاذ سلطانهم فتمكنوا من إنقاذه..إلا أنه أصيب بجروح غير قاتلة..وبعد هذه الحادثة لاذ قوم الزناتي بالفرار بسلطانهم إلى داخل المدينة وأغلقوا أبوابها من الداخل..فيما ضرب بنو هلال الحصار على المدينة..وفي المساء قام أبو زيد بضرب الرمل فظهر له بأن قاتل السلطان الزناتي خليفة ما هو إلا الأمير ذياب ابن غانم..الذي لا يزال يحرس الإبل وأثقالهم..فتسلل في جوف الليل ودخل على الأميرة سعدى ابنة السلطان الزناتي وطلب منها أن تضرب الرمل وهي متخصصة في هذه الصنعة حتى يتيقن من صدق ما ظهر له في الرمل دون أن يخبرها..فأحضرت

أدوات الرمل وضربته وظهر لها بأن قاتل أبيها ما هو إلا الأمير ذياب بن غانم..فأخبرته الخبر..فقال صدقتي..فكذلك ظهر عندي علماً بأن السلطان الزناتي خليفة سبق وأن أمر سعدى ابنته بضرب الرمل متسائلاً عن قاتله..فقالت له يقتلك ذيب أو ذياب وهي هنا تركت الموضوع مفتوحاً على جميع الاحتمالات وكان متوقعاً أن الذيب هو الذئب من الحيوانات وليس من البشر..

وأما أبو زيد فعاد إلى مضارب بني هلال ليلاً وأرسل للأمير ذياب يحثه على المجيء إلا أن الأمير ذياب رفض أن يجيء إلا إذا كتب له السلطان حسن بن سرحان كتاباً..لأنه أوكل إليه حراسة الإبل والأثقال..فكتب إليه السلطان حسن بن سرحان مع أبا زيد وأرسل الكتاب مع عبد للأمير ذياب اسمه سعد..فلما وصل وجد الأمير ذياب نائماً فأيقظه فقال ذياب:

يَا سَعْدْ خَبرِّنِيْ وَانَا كُنْتْ غَايِبْ

مِنْ الْخَيْلْ وَالْشّبَانْ وَيْنْ جَا خِيَارْهَا

يقول الأمير ذياب.. يا سعد وهو العبد..خبرني..لأنني كنت غائباً فخبرني أولاً عن **الخيل والشبان وين جا خيارها**..بمعنى ما هي أخبار الخيل وكذلك الشباب من فرسان بني هلال وكذلك علية القوم..**خيارها**..فأجابه العبد:

يَاسِيْد قِدْ قِتْلَوا عَيالَكْ ثَلاثِةْ

وَخَيّر من شَلْ الْرَمَكْ في يِسَارْهَـــا

وياسيد قد قُتل الْخِفَاجْي عَامِرْ

ألاَ يا دَمَارْ الْبَدُو وَلاَ يَانَبَارَهَـــــا

ياسيد لَنْت شُفتْ قَتْلَةْ ابن عَامِر

مَا يَهْنَاكْ ليلها من نهارهـــا

يقول سعد العبد..يا سيد..أي يا سيدي.. **قد قتلوا عيالك الثلاثة**..وهم كانوا خير..أي أحسن..**من شل**..أي من أخذ..**الرمك**..والرمك هي الخيل..**في يسارها**.. والعرب كانوا يقودون الخيل من شمالها حتى يتمكن الفارس من

ركوبها من جهة الشمال، حيث أن الخيل لا تركب من اليمين..وأضاف العبد:

ویاسید قد قُتل الْخِفَاجْي عَامِرْ ... ألاَ یا دَمَارْ الْبَدُو وَلاَ یَانَبَارَهَـــــا

ويا سيدي..**قد قُتل الخفاجي عامر**..وبقتله خسرت البدو - وهم عرب بني هلال – خسارةً كبيرة..شبه هذه الخسارة بدمارهم..وأضاف..ونبارها..تعني هلاكها..وكان الخفاجي عامر من خيرة فرسانهم رغم أنه ليس منهم ولكنه مرافق لهم من اليمن وكانوا يحملون له الحب والتقدير والاحترام فهو معهم ورفيقهم..وكان العرب يقدرون من كان معهم من غيرهم أكثر من جماعتهم..ثم قال:

یاسید لَنْت شُفتْ قَتْلَةْ ابن عَامِرّ ... مَا یَهْنَاكْ لیلها من نهارهـــا

ياسيدي..لو أنك رأيت مصرع الخفاجي عامر..لم يهنك الأكل لا ليلاً ولا نهاراً..**مايهناك ليلها من نهارها**..حيث أن قوم الزناتي مثلوا بالخفاجي عامر بعد قتله..مما كان له أكبر الأثر في نفوس بني هلال..

فلما سمع الأمير ذياب بن غانم بهذه الأخبار غير السارة استشاط غضباً فوثب من مضجعه ورمى العبد بالرمح..فأخطأه وأصاب رأس أفعى كانت في المكان..وهنا تهيأ ذياب وركب جواده ورافقه عدة فرسان من بني هلال ودخلوا إلى مجلس السلطان حسن بن سرحان فأخبره السلطان بكل ما حصل كما أخبره العبد..ثم أخبره بأن الزناتي جريح في قصره..وقد أغلقت المدينة من الداخل..وطلب من ذياب أن يعمل على اقتحام المدينة أو يعمل حيلة للاستيلاء عليها فقد استعصت عليهم وأثار له قضية قتل الخفاجي عامر وتمثيلهم به وكان الأمير ذياب يحبه حباً جماً..فأرتجز قائلاً:

لِعْنْ نَفْسْ مَنْثَنَتْ عِنْدْ عَامِـرْ ... تُرْخَصْ الْنَفْسْ وَالله عِنِدْ جاَرَهَا

يقول الأمير ذياب: اللعنة على النفس التي لم تنثن..أي لم ترجع للعاطفة أو لم تتأثر لقتل الخفاجي عامر..وأضاف: ونحن نرخص النفوس عند الجار..**ترخص النفس والله عند جارها**..فنحن نمنع الجار ونحمي الذمار ونحن لها..

فانصرف ودخل على الأمير أبو زيد وتدارس معه الأمر فأخبره أبو زيد بأنه ظهر له في الرمل أن لا قاتل للسلطان الزناتي غيره..وأعدوا خطة سوف ينفذها الأمير ذياب في اليوم التالي..

وفي اليوم التالي تنكر الأمير ذياب في زي طبيب وحمل أدوات الطب وبعض العلاجات وذهب إلى المدينة فدق الباب..قال الحارس: من أنت..قال: طبيب أبحث عن لقمة عيشي من مهنة الطب..فسمح له بالدخول فأبلغوا القصر بأن طبيباً موجوداً..فقالوا آتوا بالطبيب يعمل على علاج السلطان الجريح..فدخل القصر فسأله مسئول القصر قائلاً من أي البلاد أنت؟..قال من مصر..وكانوا لم يروا ذياب من قبل حيث كان يحرس الإبل فانطلت عليهم الخدعة.. ثم سأله هل لديك علاجاً للجراح..قال له ذياب..نعم ولدي خبرة طويلة في هذا المجال..فأدخله على السلطان الجريح..فتحدث مع السلطان وأعجب السلطان بحديثه..وقام ذياب بفحص الجراح وطلب من الحاضرين الخروج حتى يقوم بتطبيبه دون

إزعاج..فوافق السلطان هذا الرأي وصرف الخدم والحراس عنهم..فقام ذياب وأغلق الباب وأخرج خنجراً كان قد خبأه مع العلاجات في الكيس وعندما شد عليه عرف أنه قاتله لا محالة..فقال السلطان الزناتي: **أنت ذيب أو ذياب**..قال أنا ذياب..فقال: السلطان **إذن استوفى الحساب**..(أي وقت الحسبة) التي قالت له ابنته سعدى عندما ظهر لها من خلال الرمل أن قاتله ذيب أو ذياب..فذبحه من الوريد إلى الوريد ثم سجاه في مضجعه..وهنا فكر الأمير ذياب أنه سوف يختلف مع الأمير أبو زيد عن من قتل السلطان الزناتي خليفة..حيث أنه يخاف أن الأمير أبا زيد يدعي أنه من قام بقتل السلطان الزناتي خليفة..فقام ووضع كفه في دم السلطان..ووثب إلى الأعلى وطبع كفه الملطخ بالدم في سقف المكان حتى يصبح ذلك شاهداً تحرزاً من أي إدعاء وذلك بمثابة البصمة..ثم قام الأمير ذياب بغسل يده وغسل الخنجر وخبائه في مكانه الأول وهيأ نفسه وخرج..وأغلق الباب من الخارج..وأقبل عليهم وقال

الحمد لله على السلامة..أنا قمت بعلاج السلطان وهو نائم الآن فلا توقظوه إلا بعد العصر..وكان الوقت ظهراً..فشكروه وأغدقوا عليه بالدنانير والهدايا..وخرج مسرعاً إلى بني هلال ليخبرهم الخبر..فلما وصل نادى..هلموا إلى مجلس السلطان حسن بن سرحان..فتوافد القوم ليستطلعوا الخبر الذي أتى به الأمير ذياب..وعندما اجتمع كبار القوم وأمرائهم قال لهم: أنا ذبحت السلطان الزناتي خليفة من الوريد للوريد..وحثيتهم ألا يوقظوه إلا بعد العصر فالرأي عندي أنكم تتأهبوا لانقضاض على المدينة حال ما تسمعوا النواح والهرج والمرج من داخل المدينة..قالوا: حباً وكرامة أيها البطل الصنديد..فتهيأوا وانتظروا إلى بعد العصر فسمعوا الصراخ والهرج والمرج من داخل المدينة فصاح أبو زيد أن أهجموا على أبواب المدينة..فهجموا هجمة رجل واحد على جميع الأبواب المتعددة كأنهم عاصفة هبت واقتحموا الأبواب ودخلوا المدينة واستولوا عليها..ودانت لهم البلاد بكاملها..

الفصل الخامس

عودة أبو زيد الهلالي للجزيرة العربية لزيارة علياء الهلالية
وما جرى له من أهوال في تلك الرحلة

قيل أن علياء الهلالية لما طال غياب أبي زيد عنها بالشمال الأفريقي، كانت تراقب الركبان المسافرين من وإلى الشمال الأفريقي لتعرف منهم أخبار بني هلال وخاصة محبوبها أبو زيد الهلالي، حيث أنها تخلفت عنهم بالجزيرة العربية ولم يعرف على وجه اليقين ما الذي منعها عن السفر رغم حبها وارتباطها بأبي زيد الهلالي، وقد قالت شعراً كثيراً عن ذلك الفراق وهي شاعرة متمكنة تمتلك قوة التعبير وجزالة الألفاظ وتستطيع الوصول إلى ما تريد بكل سهولة وبطلاقة..وتطرق موضوعها من مختلف الوجوه..ويكفي أنها بشعرها قد حملت أبا زيد على العودة من برقة وقابس إليها بالجزيرة العربية بقصيدة واحدة.

فقد قالت شعراً كثيراً..عن ذلك الفراق إلا أننا لم نتمكن من الحصول على أشعارها كاملةً لعدم التدوين لهذا التراث الذي حفظته لنا الأجيال السابقة في الصدور شفوياً من جيل إلى جيل مع ما يعتوره من النقصان والنسيان فنجده مقطعاً بحيث أننا نحصل على بيت واحد من قصيدة كاملة ولا بد أنها كانت طويلة..مثل قولها:

لِيْشْ يَا أبو زِيدْ غِبْتْ عَنَّا ... وَمَا مِثْلَكْ يا أبو زيْدْ يِغِيْبْ

هي تقول مخاطبةً أبي زيد..ليش أي لماذا تغيب عنا.. والذي مثلك يا أبو زيد بما نحمل له من حب وود وغرام لا يغيب عن أحبابه..

إلا إننا تمكنا وبحمد الله تعالى من الحصول على قصيدتها أو معلقتها التالية من عدة مصادر شفوية..فإلى قصيدة علياء الهلالية..

قصيدة علياء الهلالية

يَارَكْبْ[1] يَاللَيْ مِنْ عِنْدِنَا عَلَىَ ضُمّرْ مِثْل الحنَايَا نَـحَايِلِيّ
أبَا اوصِيْكُمْ وَصَاةٍ مَا تِثْقِلْ خَفِيْفَةٍ عَلَىَ رَاعِيْ الْثّنَاء
وِلْيَا لَفَيْتُواْ لأَهْلكُمْ عَقْبْ مِتْغَبّطِيْن[2] فِيْ بِطْونْ الْحَلاَيِلِ
فِقُولُوا لأَبوْ زيِدْ إنْ بَغَانِيْ وِإنْ دَوّرْ الْبَدْلاَ لِقِيْنَا الْبَدَايِلِ
كَمْ رَجُوحْ الْسَاقْ تِبّلَى بِعَاقَةَ وَكَمْ عَاقَةَ تِبْلَى بَوافِيْ الْخَصَايِلِ
أبوزيد غُرّاتْ الْصّبَا لاَ تُغُرّكْ وَمِنْهُوْ مِعَنّزْ مَا يَنْسَى الأوائِلِ
أبوزيد أخْضَرْ مَا يَزوّرْ ثِيَابهِ هَبْيلْ يِلْعَبْ بِالْقُلُوبْ الْهَبَايِلِ
أبو زيد لَوْ أنْ الْنِسَاء تْرِكَبْ جِيْتَكْ عَلَىَ وَجّنَاء وَلَوْ قِيْلْ عَايِلِ
وَالله لَولاَ الْبَحْرْ بِيْنِيْ وِبْيَنكْ لأرْكَبْ عَلَىَ وَضْحَىَ مِنْ الْهِجْنْ
أمَا تُذْكُرْ حَدْيثِى ومجلسي فِيْ ركنت البرقاء قِدْ الْفَيْ مَا يِلِ
أبو زيد شُفْ وَادِيْ الْمُنْخُلْ وَكُلْ غَرّ مِنْ عَلاَوِيْهّ سَايِلِ
جَوّدْ عَلَىَ حَايِلْ تِزَافِيْ بِشَدّكْ إذَا قِدْ الْعَيْرَاتْ ضُمّرْ رَكَايِلي
جَمَالِيّةَ المْقْدَمْ غَزَالِيّةَ الْقَفَى فِيْهَا أدّبوْ يَا عَارِفِيْنْ الْرَحَايِلِ
عَامَاً نِعْجْيّهاَ وعَامَا عَلى امها وَعَاماً عَلَىَ ظِيْرِيْن[5] وَأرّبَعْ بَهَايِلِ
وعَامَاً نِدَرّسْهَا وَعَامَاً نِشِدّهَا وَعَامَا تِزَافِيْ بِالْرَدِيفِيْنّ حَايِلِ
شَبّهتها فِي الغر لقصى نعامة وِفِي الغَر لدنى مِن خفِيفات الْزَوايِلِ
إن جَا الْشِتَا جَوّدْ عَلى عصعصية وِفِيْ الْقِيْظْ دَوْرَ منْ كِبَارْ الْشَمَايِلِ
مْدَرْمَحَةَ لخّفَافْ ماترمح الرجاء وَلاَ دَزّهَا الْجْمَالْ بِين الْعَدَايِلِ
أبو زيد أنَا لَكْ عُقّلَةٍ حَامِدّيِ مَاخَرْبَنْها مِنَمْنِمَاتْ الْدَخَايِلِ

---

[1]) الركب أصحاب الإبل في السفر دون الدواب، وهم العشرة فما فوقها. (مختار الصحاح).
2) الغبطة هي حسن الحال، ومن قولهم اللهم غبطاً لاهبطاً، أي نسألك الغبطة ونعوذ بك أن نهبط من حالنا. (مختار الصحاح).
3) من المفارقة العجيبة تشابه هذا البيت مع بيتاً قاله جميل بثينة في وضع البرقاء كشاهد بين العاشقين، قال جميل بثينة (**فمن يُك في حبي بثينة يمتري...فبرقاء ذي ضالٍ عليّ شهيدٌ**)، وأما الأبرق أو البرقاء غلظ فيه حجاره ورمل وطين مختلطة. (مختار الصحاح).
4) قال الربعي: الجمالية الناقة الضخمة تشبه الجمل الفحل، قال زهير بن أبي سلمى بيت شعري (**جماليه يبقى سيري ورحلتي...على ظهرها منيها غير محفد**).
5) والظيرين هي ظئرين ومفردها ظئر، قال الربعي الظئر الناقة المرضع وجمعها أظْـآر.

أبو زيد أنا لَكْ مِثْل بَرّاقَة الضحى تُبْرقْ ولَوْ مَا فَوْقَهَا إلاَّ الْهَمَايِلِ
نِسيْتْ يَومَ عَرِقَاتْ الْعَبَلْ بِيْنَنَا يَومْ أنْ جَعْدِيْ فَوقْ مِتْنْيكْ مَايِلي
وكُلْ بيْضَا فِعْلِهَا مِثْلْ خَدّهاَ لَوْ َقّربَواْ الْعِجَّالْ عِنْدْ الْزّمَايِلِ
يَبِيْعُونْ مَا بَاعَواْ ويْشْرْوِنْ مَا شَرَوْا وَالْغَبْنْ بَيْنهُم وَالله فِيْ الْنّزَايِلِ
أبو زيد تِنْسَانِيْ وِتَنْسَى جَمَايِلْيْ الله أكّبَرْ يَا نِكُوْر الْجَمَايِلِ

القصيدة مع شرحها..

تقول علياء الهلالية..

يَاَركْبْ يَاللَيْ مِنْ عِنْدِنَا تِقَلْقَلَوْا

عَلىَ ضُمّرْ مِثْل الحنَايَا نـَحَايِلِيّ

تقول: علياء الهلالية: أيها الركب الذي من عندنا تقلقلوا أي تهيأوا للسفر على ضمر، أي على الإبل الضامرة بطونها، والمروضة للسفر، وهي التي لا تتوسع بطونها وبالتالي تعيقها عن السفر، فهم يحرصون على أن تظل الهجن الخاصة بالسفر ضامرة البطون..أي صغيرة، وشبهتها بالحنايا المنحنية منعطفة..نحايل..جمع نحيلة أو

ناحلة، خفيفة لتسرع السير في السفر وتقطع الفيافي والقفار، وهو تعبير لمدح الإبل التي تحوي تلك الصفات.

ثم قالت:

أبَا اوصِيْكُمْ وَصَاةٍ مَا تِثْقِلْ رِكَابْكُمْ

خَفِيْفِةٍ عَلىَ رَاعِيْ الْثّنَاء وَالْجَمايِلِ

تقول: أنا بوصيكم..أي سوف أرسل معكم وصية أي رسالة..ما تثقل ركابكم أي ليست بالثقيلة..على ركابكم أي إبلكم التي هيأتموها للسفر، وهذه الرسالة خفيفة على راعي، أي صاحب الثناء وهو المدح والجمايلي..وهي الصنائع فهي لذلك خفيفة على أصحاب هذه الصفات، والذي يمتاز بعلو الهمة ويذكره الناس ويثنون عليه، فهي لا تكلفكم شيئاً.

وقالت:

وِلْيَا لَفَيْتُواْ لأَهْلكُمْ عَقْبْ غُرْبَه

مِتْغَبّطِيْن فِيْ بِطْونْ الْحَلاَيِلِ

تقول علياء الهلالية..وليا لفيتو..أي إذا وصلتوا إلى أهلكم عقب غربة طويلة وبعد السفر المضني متغبطين..أي

متمتعين..بأخذ قسط من الراحة مع أهلكم وحلايلكم أي زوجاتكم..بعد كل ذلك العناء وبعد أخذ راحتكم..إبلغوا رسالتي.

وقالت:

فِقُولُوا لأَبوْ زيِدْ إنْ بَغَانِيْ بَغَيْتِهْ

وِإنْ دَوّرْ الْبَدْلاَ لِقِيْنَا الْبَدَايِلِ

قالت بعد ذلك: قولوا لأبي زيد إن أرادني فأنا أريده..بلا شك..أما إذا دور أي بحث عن بديل عني..لقينا نحن بدلاً عنه..والبادئ أظلم..فهذا شيء متروك له وله الخيار الأول والأخير.

ثم قالت:

كَمْ رَجُوحْ الْسَاقْ تِبّلَى بِعَاقَةْ

وَكَمْ عَاَقَةْ تِبْلَى بَوافِيْ الْخَصَايِلِ

ثم قالت..كم رجوحة الساق تبلى بعاقه ورجوحة الساق هي المرأة ذات الجمال والكمال..أي كم إمرأة ذات حسن وجمال تبلى بعاقة..أي تجد المعوقات أمامها، وأضافت وكم عاقة تبلى بوافي الخصايل..أي وكم إمرأة على

عكس الأولى لا تتمتع بأي قدر من الجمال أو من الأخلاق تظفر برجل مكمل وافي الخصائل.

ثم قالت:

أبوزيد غُرّاتْ الْصبّا لاَ تُغُرّكْ

وَمِنْهُوْ مِعَنّزْ مَا يَنْسَى الأوائِلِ

تقول..يا أبا زيد لا تغتر أي تنخدع بالجمال الذي وجدت في الشمال الأفريقي..والفتوة والشباب الجديد عليك في هذه الغربة، وأضافت فمنهو معنز أي أصيل منبته وذا حسب ونسب وله جذور عميقة ورصيد من الشرف والمروءة..فهو ما ينسى الأوائل الأول[5].

وقالت:

أبوزيد أخْضَرْ مَا يَزوّرْ ثِيَابهِ

هَبْيلْ يِلْعَبْ بِالْقُلُوبْ الْهَبَايِلِ

تقول..أن أبو زيد أخضر وهو وصف للأسمر عندهم وهو لا ينتحل لباس الأجانب، فهي تعتبر هذا له

---

5) وكأن لسان حالها يقول بما قال أبو تمام: **نقل فؤادك حيث شئت من الهوى.....ما الحب إلا للحبيب الأول**
كم منزل في الأرض يألفه الفتى.....وحنينه أبداً لأول منـــزل.

مدحاً..وأضافت بأنه هبيل..والهبيل في اللهجة ليس أهبل كما يتبادر إلى الذهن..فهم يقولون للشاب الوديع والذي يتصرف ببراءة هبيل..وقالت..يلعب بالقلوب الهبايل..أي الذين يحبون العشق الوديع البريء أو الحب العذري، أو أنها تقول أنه قد لعب بقلبها وأنها تندرج ضمن القلوب الهبائل..أي العاشقين..

وقالت:

أبو زيد لَوْ أنْ الْنِسَاء تْرِكَبْ الْنَضَاء

جِيْتَكْ عَلىَ وَجّنَاء وَلَوْ قِيْلْ عَايِلِ

وقالت.. بعد نداء أبو زيد..لو أن النساء تركب النضاء..أي الإبل السريعة..جيتك أي أتيتك على وجناء..والوجناء هي من الإبل الظاهرة أوجانها وهي تحمد في الإبل..وأضافت ولو قيل عايل..أي حتى لو قالوا الناس عنها الأقاويل..والعائل المتمرد والمتسكع فهي تقول حتى لو ضحت بسمعتها فهي مستعدة بذلك في سبيل أن تصل إليه مهما كانت العواقب.

ثم أردفت متعللة هذه المرة بوجود البحر بينها وبينه..قائلة:

وَالله لَولاَ الْبَحْرْ بِيْنِيْ وِبْيَنكْ

لأرْكَبْ عَلىَ وَضْحَىَ مِنْ الْهِجْنْ حَايِلِ

هي تحلف بالله لولا أن البحر حاجز بينها وبين أبي زيد..لكانت قد ركبت على وضحى..والوضحى هي البيضاء من الإبل.

والحايل..هي من الإبل التي ليست لبون ولا لقحة..أي ليست حاملاً..وهي صفات في الأقوى من الإبل وأصحها وهي التي تتحمل مشاق السفر لصحة بدنها.

وقالت:

أبو زيد أمَا تُذْكُرْ حَدْيِثِيْ وَمَجْلَسِيْ

فِيْ رِكْنَةْ الْبَرقَاء قِدْ الْفَيْ مَا يِلِ

تقول علياء الهلالية: أما تذكر يا أبا زيد الحديث الذي دار بيننا في مجلسنا ذلك الذي كان في يوم من الأيام في ركنة البرقاء..والبرقاء جبل صغير به تراب الرمل مختلطاً مع الصخور.

فهم بذلك يسمونه أبرق أو برقاء..وعادة ما يجد في أطراف الربع الخالي في مواضع متعددة، وأضافت من أجل أن تذكره بذلك المجلس وذلك الحديث قائلة..قد الفي مايل..أي بعد الزوال..والفَيّ هو الظل..حيث كانوا يحددون الوقت قبل ظهور الساعات بالشمس والظل[6].

وقالت علياء الهلالية:

أبو زيد شُفْ وَادِيْ الْمُنْخُلْ إمْتَلاَ

وَكُلْ غَرّ مِنْ عَلاَوِيْهّ سَايِلِ

تقول علياء الهلالية: بعد نداء أبو زيد..شوف أي ترى..الوادي الذي اسمه المنخلي إمتلأ من السيول..والأرض بها أمطار غزيرة وكل غر والغر هو وادي صغير صحراوي به أشجار وعشب، قالت الأمطار عامه وكل وادي من أعلاه قد سال بالسيول..فهم معتمدون على هطول الأمطار في معيشتهم ولا تخلوا أشعارهم منه..وقد كان سبب نزوح بني هلال من الجزيرة العربية هو شحة الأمطار بلا شك.

---

6) وهي بذلك كأنها تحاكي النابغة الجعدي الذي قال: **تذكرت والذكرى تهيج على الفتى..ومن حاجة المحزون أن يتذكر.**

وقالت:

جَوّدْ عَلىَ حَايِلْ تِزَافِيْ بِشَدّكْ

إذَا قِدْ الْعَيْرَاتْ ضُمّرْ رَكَايِلي

تقول: جود..أي تمون قبل السفر بما يلزم من التموين والمتاع والماء..وجود هي لهجة تعني تزود وأكثر فهي بذلك تقول لأبي زيد أن يتمون ويهيئ كل أموره للسفر وأضافت..وعليك يا أبا زيد أن تمتطي من الإبل ما كانت ضامرة من الإبل..تزافي بشدك..أي تحمل الشّد..والشدّ للإبل هو كالسرج للخيل..وهم يتفننون بصناعة الشداد ويتفاخرون به وتزافي بمعنى تحمله في زهو وكبرياء ودون عناء..وأضافت إذا قد العيرات وهي الإبل التي تحمل المسافرين ضُمّر بضم الضاد وبتشديد الميم، أي صغار البطون من شدة الجهد والتعب، وركايل أي كليلة جراء الإجهاد والسفر.

وقالت..

جَمَالِيّةْ المْقْدَمْ غَزَالِيّةْ الْقَفَى

فِيْهَا أدّبوْ يَا عَارِفِيْنْ الْرَحَايِلِ

تقول..عليا الهلالية في وصف الأجود من الإبل لأبي زيد..جمالية المقدم أي جميلة إذا نظرت إليها من الأمام فإنك تنظر جمالاً وحسناً في خلقها وحسنها..وقال الربعي الجمالية هي الناقة التي تشبه الجمل الفحل وسبق شرحه..وغزالية القفى..أي شبهتها بالغزال وهو الصيد البري عندما تكون مدبرةً.

ثم أضافت..فيها أدبوا..أي دربوا والأدب في الإبل هو التدريب..وقالت يا عارفين الرحايلي..أي أيها القوم الذين تعرفون الإبل الصالحة للركوب والرحايل تلك هي صفات الإبل التي ينبغي أن يلاحظها العارف بالإبل..وبالتالي العمل على تدريبها لتصبح متفوقة في السفر وتحملها للمشاق..وقد جمعت بين قوة التحمل وجمال المنظر. ثم إستطردت في وصف الإبل قائلة:

عَامَاً نِعْجْيّهاَ وعَامَا عَلىَ أمهَا

وَعَاماً عَلىَ ظِيْرِيْن وَأرّبَعْ بَهَايِلِ

تقول علياء الهلالية: نحن نهتم بهذه الذلول من الإبل منذ ولادتها..ففي العام الأول من عمرها نعجيها..أي نعمل على إرضاعها الحليب بأيدينا..والعام الثاني نتركها ترضع الحليب من أمها حتى تنمو وهي صغيرة طرية وتتقوى عظامها وجسمها..أما العام الثالث فنتركها لضيرين..أي إثنتين من الإبل..الذين يعملون على إستدرار الحليب منهما لصالح الصغيرة من الإبل إضافة إلى أربع من الإبل ذات الحليب وهي البهائل..والبهائل من الإبل مفردها باهل وهي التي لا يضع على ضروعها ما يمنع صغير الإبل من الرضاعة..فهم يقولون باهل..وعكسها مشملة..أي عليها شمالة..كيس من وبر الإبل لمنع صغير الإبل من الرضاعة..

وأضافت..

وعَامَاً نِدَرّسْهَا وَعَامَاً نِشِدّهَا

وَعَامَا تِزَافِيْ بِالْرَدِيفِيْنّ حَايِلِ

تقول..أما عند العام الرابع وهو عمر الفتى من الإبل..ندرسها..أي نعمل على تدريبها على الركوب

والجري السريع..وعام نشدها..أي العام الخامس..نعمل على وضع الشدّ عليها..فقد أصبحت مؤهلة لذلك ومدربة وجاهزة..فهي قوية الجسم والبنية..وقد أصبحت تزافي أي تنقل برفق الرديفين والرديفان هما راكبان إثنان عليها..وهي حائل..والحائل التي لم تكن حاملاً أو لبوناً..وهو وصف للأقوى من الإبل.

وأضافت..وهي لا زالت في وصف الجيدة من الإبل..

شَبّهْتَهَا فِيْ الْغَرْ لَقْصَىَ نَعَامَةْ

وِفِيْ الْغَرْ لَدْنَىْ مِنْ خَفِيْفَ الْزَوايِلِ

تقول..عن ذلك إنها شبهت ذلك الوصف بالإبل عندما رأتها شبهتها في الغر لأقصى..أي عندما رأتها في الوادي وهو الغر البعيد الأقصى كأنها نعامة، أما في الغر..أي الوادي لدنى وهو الأدنى فكأنها من خفاف الإبل الزوايل..وهو مدح في الأجود من الإبل.

وقالت:

إن جَا الْشِتَا جَوّدْ عَلىَ عَصْعِصِيّهْ

وِفِيْ الْقِيْظْ دَوْرَ منْ كِبَارْ الْشَمَايِلِ

تقول علياء الهلالية وهي ما زالت تحرض أبو زيد على المجيئ إليها إلى الجزيرة العربية.. إذا كان الوقت شتاء جود أي تمون للسفر على عصعصية والعصعصية هي التي ليس بها حليب من الإبل..وهو وصف للأقوى من الإبل..أما إذا كان في فصل الصيف فدور أي إبحث لإحدى الإبل التي بها حليب من كبار الشمايل..حتى تشرب من حليبها في فصل الصيف والشمايل..جمع شمالة..وهو كيس من وبر الإبل..أي شعرها يضع على ضروع الناقة ليحميها..واستطردت علياء الهلالية في وصف الناقة التي يجب أن يستقلها أبو زيد قائلة:

إِمْدَرْمَحَةْ الأَخّفَافْ مَا تِرْمَحْ الْرّجَاء

وَلاَ دَزَّهَا الْجْمَالْ بِين الْعَدَايِلِ

تقول علياء: هذه الناقة التي يجب أن تأتي عليها يا أبا زيد..يجيب أن تكون مدرمحة الأخفاف..والمدرمحة مستديرة الأخفاف..وهي أقدام الإبل..فهي تقول يجب أن تكون أقدامها مستديرة..وهي الأجود في الإبل..ما ترمح الرجاء..والرجاء هو سلأ الناقة عند الولادة..والمعنى أنها

لم تلد بعد..والميلاد ينهك قواها وهي تريدها قوية البنية..ولا دزها الجمال بين العدايل..أي لم يضعها الجمال..والجمال هو من يحمل الأحمال على الجمال..والعدايل..هي جمع عدلة..حمول من عدلين متوازيان على ظهر الجمل لحمله..أي أنها لم تحمل الحمول الثقيلة التي تهد حيلها..فهي مخصصة للركوب فحسب.

وقالت:

أبو زيد أنَا لَكْ عُقّلَةٍ حَامِدّيِة

مَاخَرْبَنْها مِنَمْنِمَاتْ الْدَخَايِلِ

تقول علياء الهلالية: يا أبا زيد..أنا لك عقلة حامدية.. أي عقيلة محموده سيرتها حسنة ومستقيمة..ما خربنها نمامات الدخايلي..أي لم يثنها السنة الموشيات بالنميمة اللاتي يتدخلن بين الأزواج بما ليس يعنيهن، ورغم ذلك لم يؤثر عليها كل ما قيل عنها..لثقتها بنفسها وبالتالي ثقتها في أبي زيد الذي تحبه.

وتقول علياء:

أبو زيد أَنا لَكْ مِثْل بَرّاقَةْ الْضَّحَى

تُبْرقْ ولَوْ مَا فُوْقَهَا إلاَّ الْهَمَايِلِ

تقول أنها له مثل براقة الضحى..أي بارق المطر الذي يأتي ضحى النهار..وهو وقت قبل الظهر فهي تبرق حتى ولو ما فوقها إلا الهمايل.. أي السحب الخفيفة..وتقصد أنها وفية معه إلى أبعد الحدود..وتستثير ضميره ثم تذكره سالف الأيام فقالت:

نِسيْتْ يَومَ عَرِقَاتْ الْعَبَلْ بِيْنَنَا

يَومْ أنْ جَعْدِيْ فُوقْ مِتْنْيِكْ مَايِلِي

تقول متسائلة..هل نسيت أحد الأيام عندما كانت شجرت العبل بيننا والعبل شجر صحراوي معروف في المنطقة الشرقية..تستطيبه الإبل وهو الخمط الذي ذكر في القرآن الكريم..قال تعالى (**وبدلنهم بمجنتيهم جنتان ذواتى أكل خمطٍ وأثل وشيءٍ من سدرٍ قليل**) [7].

[7] سورة سبأ، آية 16.

وأضافت يوم إن جعد الشعر فوق متنيك والمتن الأكتاف..فهي تصف له وتذكره بالأيام الخوالي عسى أن يرق قلبه لها..وأضافت في هذا السياق

وكُلْ بيْضَا فِعْلِهَا مِثْلْ خَدّهاَ

لَوْ َقّربَواْ الْعِجَّالْ عِنْدْ الْزّمَايِلِ

كل بيضاء تقصد كل امرأة فعلها أي عملها وحسن أدائها للأعمال المنزلية مثل خدها، أي مثل حسنها وجمالها..لو قربوا العجال عند الزمايل..تقول عندما يأتي النزلاء الضيوف وهم مستعجلين ويريدون الأكل فهي بذلك بارعة في صناعته في ثبات وسرعة متناهية وهي تشبه صنعتها مثل جمالها الذي شبهت الجمال والصنعة باللون الأبيض.

وتقول:

يَبِيْعُونْ مَا بَاعَواْ ويْشْرْوِنْ مَا شَرَوْا

وَالْغَبْنْ بَيْنهُم وَالله فِيْ الْنّزَايِلِ

تقول مهما كان من أمر من بيع أو شراء أو زواج فإنما الغبن بينهم في النزايل.. والغبن الظلم..والنزايل جمع

نزيلة..وهي المرأة..فهن يختلفن من واحدة إلى أخرى وهي بذلك تشير بالتورية إلى نفسها بالتفوق وأنها من النوع الأفضل..

أبو زيد تِنْسَانِيْ وِتَنْسَى جَمَايِلْيْ

الله أكّبَرْ يَا نِكُوْر الْجَمَايِلِ

تساءل إنكاري..فهي تقول..أأنت تنساني وتنسى جمايلي أي صنائعي فيك يا أبو زيد..الله أكبر يا ناكر الصنيع الجميل..والنكران الجاحد الجميل الصنيع[8]:

وعند وصول قصيدة علياء الهلالية إلى أبي زيد وهو في برقة وفهم ما فيها من تقريع له وذكريات أثارت مشاعره ووجدانه فحن إلى زيارتها إلى مقرها بالجزيرة العربية مهما كانت النتائج ومهما بُعدت المسافة وكانت المشقة ومهما كلفه ذلك فعقد العزم على السفر إليها وليكن ما يكون فجمع خاصته وأقاربه وأخبرهم بالخبر وأطلعهم على قراره بالسفر فقالوا: يا أبا زيد نحن في ديار بعيده

[8] وكأنها في هذا البيت تحاكي الإمام الشافعي حين قال: **وينكر عيشاً قد تقادم عهـــدهُ.....ويظهر سراً كان بالأمس في خفـــي سلامٌ على الدنيا إذا لم يكن بها.....صديق صدوق صادق الوعد منصـــفا**

وقد تعبنا وخضنا أهوالاً وحروباً حتى استقرينا بهذه الديار التي اتخذناها بديله عن ديارنا بالجزيرة العربية ولا نعدك أن احد منا على استعداد أن يخوض غمار المغامرة بالعودة إلى تلك الديار على ما يلحق المسافرين إليها من الأخطار فقد يدفعون أرواحهم ونحن نطلب منك العدول عن هذا القرار وسوف نزوجك ممن شئت من بنات بني هلال وما عليك إلا أن تختار ونحن على استعداد أن نزوجك إياها.

قال أبو زيد: أنا لن آخذ بدلاً عن علياء فلا تتعبوا أنفسكم فإذا لم يأت معي أحد منكم فسوف أسافر بمفردي وأنا أبو زيد وحوش البر تعرفني فما بالكم برجاله، واستشاط غضباً ونهض من مجلسهم وانصرف يهيئ نفسه للسفر فتبعه عزيز ابن أخته وهم يقولوا عزيز ابن خاله وخاله هو أبو زيد تبعه وقال يا خالي أنا سوف أرافقك ورأسي مع راسك. ثم تبعه عمار وقال وأنا رفيقكم الثالث..قال أبا زيد يكفي معي عزيز ولا داعي لمجيئك معنا.. قال لابد من الذهاب معكم يا أبو زيد حتى للبحر..قال أهلاً وسهلاً

ما دام وأنت مصر..فأصلحوا من شأنهم وهيئوا ثلاث من الإبل الجيدة لنقلهم وغادروا الشمال الأفريقي مودعين بالتهليل والتكبير والدعوات إلى الله سبحانه وتعالى أن يعودوا بالسلامة.

وجدوا في المسير وكانوا يواصلون المسير ليلاً ونهاراً إلى أن وصلوا صحراء سيناء..فنفذ ماؤهم وكادوا يهلكون عطشاً فوجدوا بئراً ما ولكن ليس بها حبل لنزع الماء ولا دلوا فوقفوا متحيرين في أمرهم ماذا يصنعون؟..قال عمار أنا سوف أنزل وإملاء القدر وأصعد به حتى تشربون وتشرب جمالنا..وكان عمار شاباً قوي البنية فحاول أبو زيد أن يثنيه..ولكنه أصر على رأيه فأخذ القدر ونزل مع أحجار بناء البئر فشرب وملاء القدر وصعد من البئر وعندما وصل إلى وسط البئر لدغة ثعبان في رجله فلم يصيح، بل تحامل على نفسه حتى صعد وتناولوا منه القدر وشربوا وسقوا جمالهم وإذا عمار يربط رجله ويتلوى من الألم..قالوا ما بك؟ وما أصابك يا عمار؟..قال لقد لدغني ثعبان وأنا

صاعد من البئر، ولكني صبرت حتى تشربوا..فأخذوه وربطوا رجله وحاولوا يائسين أن يسقوه السمن، ولكن السم قد انتشر في جسمه وما هي إلا سويعات حتى لفظ أنفاسه الأخيرة..فحزنوا حزناً شديداً على عمار وقاموا من وقتهم وساعتهم وحفروا له قبراً وواروه التراب..ثم قام أبو زيد وعقر ناقته على قبره وأقاموا يومين ورحلوا وجدوا في مواصلة السير نحو علياء..وعندما اقتربوا من ديارها تنكروا ونكروا جمالهم حتى لا يعرفهم أحد..وفي المساء دخلوا منطقة بها أشجار كثيفة قرب مورد ترتاده علياء وقريبة من الحي وناموا وفي الصباح قال أبو زيد لعزيز: أخرج يا عزيز متنكراً وسيفك تحت العباءة وخذ حمار من الحمير الضالة..وأذهب لمورد الماء وراقب ميراد علياء..وحاول أن تنفرد بها وتخبرها بوجودي في هذا الموضع، وأعمل حيلتك في تبادل عباءاتكما.. أي تنكر ياعزيز في زي علياء وأذهب لبيتها وهي تتنكر في زيك فتأتيني..قال حباً وكرامة يا خال ولكن ما هي أوصاف علياء لأنه لا يعرفها فقد ذهب عند رحيل بني

هلال وهو صغير السن..قال: علياء ليست بالطويلة البائن طولها ولا بالقصيرة..إن رأيتها وهي واقفة فالنساء أطول منها.. وإن رأيتها وهي جالسه فهي الأطول في النساء وهي فصيحة المنطق قوية البيان وذات ذكاء وحدس مرهف.

فذهب عزيز من وقته وساعته متنكراً وأخذ حمار من الطريق وأتى به يقوده إلى مورد الماء ويتعثر في ملابسه، وعندما وقف على الماء والنساء على الماء أسقى الحمار وانتحى إلى ظل وجلس ممسكاً بخطام الحمار ولاحظته علياء وعرفت أنه غريب الديار وتركت النساء يذهبن من على الماء ولم يبق إلا هي وجملها..فحملت الماء على الجمل وذهبت إلى عزيز ووقفت وقالت شعراً:

يا راعي العير ذي ظليت قارع

يوم راحت الوردة من الماء هات

تقول علياء الهلالية..يا راعي العير أي صاحب الحمار ذي ظليت قارع بمعنى واقف موجهة كلامها إلى عزيز

وهي لم تعرفه من قبل ولكن حدسها دلها أن هذا الرجل لا بد أن لديه شيء يخفيه ثم أضافت يوم راحت الوردة من الماء هات..أي بعد أن ذهبت النساء عن الماء هات أخبارك..جبلي أخبارك أيها الرجل ماذا ورائك ؟ فلا بد أن لديك ما تخفيه..ولا بد أن تطلعني عليه..

فلما سمع عزيز ما قالت علياء..أراد أن يتأكد أنها هي علياء حتى لا تنطلي عليه أي حيلة..فقال:

إن كانش علياء ولا تشبهينها

تري أخبار أبو زيد الهلالي مات

أي إن كنتي أنتي علياء أو كنتي تشبهينها..فإن لدي أخباراً عن أبي زيد أنه توفى..أراد عزيز بهذا الخبر الذي اختلقه من وقته وساعته أن يستفزها بهذا الخبر وليرى رد الفعل لديها حتى يتأكد من أنها هي علياء.

فلما سمعت هذا الخبر الذي نزل عليها كالصاعقة قالت:

عساك مجنون وعساك غاوي

وعساك شارب من غدير ازغات

تقول علياء الهلالية: عساك مجنون أي ربما أنك مجنون وعساك غاوي، أي ربما أنك غلطان بالخبر، أو عساك شارب،أو ربما أنك قد شربت من غدير إزغات..والغدير هو الذي يجتمع به الماء بعد المطر، والزغات بمعنى المياه الملوثة غير الصالحة للشرب..والتي مضت عليها مدة طويلة حتى تعفنت ومن شرب منها لا بد أن يصاب بالهلوسة والهذيان.

فلما سمع ردها قال:

لانا بمجنون ولانا بغاوي

ولكن هذي علوم الحقايق جات

يقول عزيز: أنا لست مجنوناً ولست بغلطان بالخبر..أنا بكامل قواي العقلية، ولكن هذه هي الحقيقة..والعلوم هي الأخبار..فأنا وصلت للتو ومتأكد من هذا الخبر..ومن أن الرجل قد مات يرحمه الله..

أراد عزيز أن يضغط على أعصابها حتى النهاية ليختبرها فعند ذلك أيقنت علياء بصدق الخبر والتفتت

نحو جملها واستلت سيفها وهوت على الجمل بالسيف وعقرته إلى روح أبو زيد..وقالت:

هذا بعيري اليوم قورّ عليّهّ

بيني وبينه في القلوب أحنات

قالت علياء..هذا بعيري أي جملي..قورّ عليّ..أي أتعبني ونكد عليّ..وبيني وبينه في القلوب أحنات..أي مواجع..فهي تقول..هذا الجمل لا بد أن أذبحه وأطعمه للناس أي لروح أبو زيد.

وارتمى الجمل على الأرض مضرجاً بدمه.. فلما رأى عزيز هذا التصرف من علياء تأكد له بما لا يدع مجالاً للشك أنها هي علياء بعينها..فاستل سيفه هو الآخر والتفت نحو الحمار وهوى عليه بالسيف وعقره وهو يقول:

ما دام عاد في قلوب المحبين مودة.
فهذا حماري يا علياء وفاته جات
وأنـــا مع الأجواد بعقر مطيتي
وهنا عير يا علياء مع بعيرك مات

قال عزيز..ما دام عاد في قلوب المحبين مودة..أي لازالت المحبة والود بين الأحباب وهما محافظين على مودتهم أي علياء وأبو زيد رغم طول الغياب والغربة والفراق..ما دام الأمر كذلك فهذا الحمار لا بد أن يموت مع جملك ومجاراة لك يا علياء، وتضامناً معك...وبعد هذا الحوار الذي أدى إلى مصرع الجمل والحمار قال عزيز لعليا..أكيد أنتي علياء؟.. قالت نعم..

من أنت؟..يا هذا الذي أتعبتني وأن روحي تكاد تزهق افصح ما ذا ورائك ؟

قال عزيز..أنا عزيز وأبو زيد بخير وهو خالي أخو أمي شيحاء..ولم يمت..وهو موجود معي في المنطقة وأرسلني إليك وأردت أن أمتحنك حتى أتأكد من أنك أنت علياء. والآن هو منتظر لك في مكان كذا وكذا..

وقد أمرني أن آخذ عباتك وأذهب لبيتك أمثلك هناك..وتذهبين انتي له..قالت حباً وكرامة..

فأعطته عباءتها وأخذت عباءته وذهبت لأبي زيد..وأما عزيز فقد لبس عباءتها وذهب لبيتها مدعياً

المرض..وكان الوقت عند حلول الظلام..ودخل البيت الذي وصفته له علياء ونام في غرفتها وفي المساء دخل عليه زوج علياء وأسمه هديهد..وكلما اقترب من عزيز الذي يعتقد أنه علياء دفعه عزيز بيده..وكان عزيز شاباً قوي البنية فارتاب هديهد من قوة المرأة وداخله الشك..فخرج من البيت وجلس إلى عجوز قريبه له وشكا عليها مشكلته وقال لها.. إنه شاك أن المرأة ليست هي أو أنه رجل..وطلب من العجوز أن تدله على حيلة تكشف له الأمر..قالت العجوز اسمع يا إبني أنا أدلك على طريقة تكشف لك المسألة وما إذا كان رجلاً أم إمرأة..وأحفظ عني ما أقول:

قال لها: قولي..

قالت: خذ هذا الإشفاء، والإشفاء آلة من الحديد تستعمل لخرز الجلود وهو قطعة حديد من البرونز مدببة ولها مقبض خشب من الطرف الثاني..قالت..ضع هذا في النار واتركه حتى يصير لونه أحمر من شدة الحرارة وخذه بيدك وأدخل عليها وحاول تقربه من ركبتها في

وضع استعداد حتى أنها تنتبه له..فإذا كانت امرأة فسوف تصيح وترتعد نتيجة الخوف..وهنا أرمه عن يدك وتصالح معها..أما إذا كان رجلاً فسوف يهيج ويهجم عليك..وعندها وبسرعة البرق أضربه بالحديد في ركبته واغرسه فيها حتى نهايته.

قال هديهد..والله يا عمة لقد دليتيني ونصحتيني وسوف أذهب من وقتي وساعتي لتنفيذ الخطة بحذافيرها..

فذهب وعمل بالنصيحة وعند اقترابه من عزيز بالحديد الملتهب ووضعه في وضعية الاستعداد للانقضاض عليه..فما أن رآه عزيز حتى صعق وزئر كالأسد الكاسر فعاجله هديهد وضربه بالحديد على ركبته وضغط حتى انغرس في ركبة عزيز..وكان عزيز من أقوى الشباب فشد عليه بسيفه المخبأ تحت عباءته وقطع رأسه بضربة واحدة..قائلاً.. ((خذت عمري وعمرك يا هديهد)).

وعندما قتل هديهد خرج عزيز من وقته وساعته يتوكأ على سيفه والحديد لا يزال مغروساً بركبته وتحامل على نفسه حتى وصل إلى خاله أبو زيد وعلياء..قال أبو زيد

أخبارك يا عزيز..قال هديهد ضربني بهذا الحديد في ركبتي وأنا قتلته والهرب قبل أن يلحق بنا القوم. فقال أبو زيد..هل انتبه أحد من الحي لهذه الواقعة..قال عزيز لا لم ينتبه أحد..ولن يكتشفوا إلا في الصباح ونحن قد قطعنا مسافة كبيرة طوال الليل..ولن يتمكنوا من اللحاق بنا.

فقال أبو زيد..لما رآى الحديد المغروس في ركبة عزيز..هذا لن ننزعه فإذا نزعناه ستنزف وتموت..وقام ووضع عليه رباطاً من الخرق..قال أبو زيد فالنسرع في السفر ونترك الحديد في مكانه..عند ذلك جهز أبو زيد جمالهم حتى يلوذوا بالفرار..فقالت علياء..أريد معكم يا أبا زيد..قال أبو زيد لا..لا داعي أن تذهبي معنا..فقالت شعراً..

علياء تبا معكم وترعى ركابكم

ولا مثل علياء من رعى في الركايب

تقول علياء..أريد معكم من أجل أقوم بخدمة ركابكم..أي جمالكم..ولا مثل عليا من رعى في الركايب..أي أن

علياء بارعة حتى في خدمة الجمال ورعيها..فقال أبو زيد شعراً..

إن سلم يا عليا عزيز ابن خالـــه
لا بد ما نثني عليش الركايـــــب
وإن مات يا علياء عزيز ابن خاله
فأنا تايب من حبكن سبعين تايب

قال أبو زيد..إن سلم أي نجا عزيز ابن خاله من الموت..فلا بد ما نعود إليك نثني عليك الجمال الركايب..أما إذا مات عزيز إبن خاله..فأنا تايب من حب النساء سبعين مرة.

فقد خسر أبو زيد خيرة شباب بني هلال وأقربهم إلى قلبه..بسبب حب عليا.. كما خسر عمار أيضاً في هذه الرحلة..

وهنا تركوا علياء ولاذوا بالفرار وجدوا بالسير طوال الليل والنهار لقطع الفيافي والقفار عائدين للشمال الأفريقي ..وكانوا كلما قطعوا مسافة كانوا ينزلون للراحة سويعات قليلة إلا أن الألم إزداد على عزيز وبدأ الموت يدب في أوصاله..فلما دخلوا صحراء سيناء كان

عزيز ينظر لتلك الصحراء وكل ما رأى منبسطاً من الأرض كان عزيز يسأل خاله أبا زيد قائلاً ياخال..أيش هذا الموضع يصلح له..فأجاب عليه خاله في المرة الأولى قائلاً هذا الموضع يابني يصلح محف للخيل..أي مضمار لسباق الخيل..وعندما مر بموضع آخر وجه نفس السؤال لخاله..قائلاً يا خال أيش هذا الموضع يصلح له..فأجاب خاله قائلاً هذا الموضع يصلح لسكن بيوت الشعر..والإبل في المراعي والأعشاب..وهكذا دواليك حتى وصلوا إلى موضع فكرر السؤال نفسه لخاله..فأجاب أبو زيد..هذا الموضع يصلح مقبره..وهنا كان عزيز في النزع الأخير.. فقال عزيز..إذن يا خال هنا أموت وهنا أقبرني..وقال عزيز شعراً:

دنا ما دنا يا خال فك العصايب

وادفني وسو سيفي وسيفك لي نصايب

يقول عزيز..دنا ما دنا..أي أتى الموت الذي لا مناص منه..وفك العصايب..أي الرباط الذي على الركبة..وإذا أنا مت ادفني هنا وإجعل سيفي وسيفك لي نصايب..أي

علامات على القبر..فتوقف أبو زيد وأنزل عزيز من على ظهر الجمل ونزع الرباط ونزع الحديد فمات عزيز في الحال..وحزن عليه أبو زيد حزناً شديداً ما عليه من مزيد..وقام وحفر له قبراً ولفه في عباءته وواراه التراب وعقر جمل عزيز فوق القبر وركب جمله وواصل السير متوجهاً إلى بني هلال بالشمال الأفريقي..

وكان لعزيز إبناً وحيدا..صغيرالسن..دون البلوغ..فلما وصل أبو زيد إلى أهله وعشيرته..سألوه قومه عن عمار ويونس وعزيز..فقال: أبو زيد عمار مات من لدغة ثعبان أما عزيز لم يمت..بل ذهب غازي سوف يأتي بإبلاً فيد أي نهباً وسوف يأتي قريباً..وقال شعراً:

عزيز مع الغزوان يأتي بهجمة

يطرّح عليها من لحلون العجايب

يقول أبو زيد: بأن عزيز ذهب مع ناس غزاةً سوف يأتون بهجمة والهجمة هي عدد كبير من الإبل..يطرح..أي يعمل عليها من اللحون أي الأغاني

العجيبه..موضحاً لهم أن عزيز سوف يأتي بإبل كثيرة وهو يغني عليها بالألحان الجميلة والعجيبة.

وكان إبن عزيز يسمع..فأجابه شعراً..

أبويْ لاَهْوَ راحْ يَأتِيْ بَهِجْمِةْ

مَا كَانِكْ يابو زيد عَنْهَا بِغَايْـــــــــبْ

وأبوي لا هو حَيْ جَانِيْ كَتَابهْ

أمَارِيْتْ الْغَيابْ قِدَهَا الْكَتَايِـــــــبْ

يامُهْرَةْ الْمقْتُولْ سِيْريْ جِنِيْبةْ

عَقْبْ مَا خِيْل الْعِدَى بالْجَنَايِــبْ

يقول الصبي إبن عزيز..إذا كان أبي ذهب يأتي بالإبل الكثيرة العدد (الهجمة) ما كان تخلفت عنها يا أبا زيد..أي من البداهة والمنطق إذا كان كلامك صحيح فلماذا أنت لم تذهب معه.. ثم أبي لو كان حياً يرزق لجاني عنه كتاب..لأن الغائب يكتب لأهله ليطمئنهم..ولكنه والشواهد تقول ذلك أنه قتل..ثم وجه كلامه لمهرة أبيه..والمهرة

هي صغيرة الخيل قائلاً..يامهرة المقتول سيري جنيبة..والجنيبة من الخيل ما كانت تمشي بجانب الخياله والحبل برقبتها وعادة ما تكون من السبايا التي تسبى قسراً..وقال من بعد ما كان خيل العدى بالجنايب أي الخيل التي كان يأتي بها عزيز مأخوذةً عنوة من أعداء بني هلال..وهنا استشاط أبو زيد غضباً ولكنه تحامل على نفسه وكظم غيظه وحزنه على عزيز بقدر ما قد رأى صفات عزيز بابنه..وظل أبو زيد ممتنعاً عن الإفصاح بموت عزيز، وذات صباح أكتشف أبو زيد آثار أخته شيحا..كانت تتصنت عليه ليلاً حيث أنها كانت تأتي ليلاً عندما يجن عليها الليل وتقف عند شباك غرفة النوم الخاصة بأبي زيد علها تسمع أي خبر من أبي زيد لامرأته عن عزيز وغيابه المريب..ولكنها لم تظفر بأي خبر..فلما أكتشف آثارها تدور حول البيت كل مساء..عزم على الإفصاح عن موت عزيز..ورثاه قائلاً:

أمْسَتْ عِجْوزْ الْوِيْل تِلْويْ بِبْيتَنَاَ

تِقْوُلْ ذِيْبةْ تِلْويْ بالْـــــــــــزْراَيِبْ

يا نَدَامِتِيْ بالْنَدَم سَبْعِيْن نَدَامِةْ

لَوْ غَدىَ مِنّا زَمْزُومْ الْرَكَايِـــــــــبْ

عَزِيْزْ ذِيْ بِسْقِيْ من الماء رَفَاقِتْهْ

لاَغَبّتْ الْغُدْرةْ خِشُومْ الْشّعَايِـــبْ

وعزيز ما يحفي الثوب منكبـــه

ليكان شيذر من كبار الشذايـــب

عزيز ذي يطعن الخصم بالقنا

يكفي على الحاضر ومن كان غايب

يقول أبو زيد: هذه العجوز طوال الليل ظلت تلوي..بمعنى تدور..على بيتي طوال الليل كأنها ذئبة تدور على زرايب الغنم..

وقال:

يا ندامتي بالندم سبعين ندامة

لو غدى منا زمزوم الركايـــــــــب

ثم ندب عزيز قائلاً يا ندمي على عزيز الذي ذهب (غدى) وهو زمزوم الركائب..أي قائد الركبان وحامي حماها..

وقال:

عزيز ذي يسقي من الماء رفاقته

لاغبت الغدرة خشوم الشعايـــب

وعزيز هو من يسقي رفاقه من الماء إذا جد الجد..وقال: إذا غبت الغدراء خشوم الشعايب..أي إذا حجبت الظلمة خشوم الشعايب..أي أطراف الجبال في المفازات والقفار والمتاهات..فهو أي عزيز أخبر بمسالكها..وموارد مائها..

وأضاف:

وعزيز ما يحفي الثوب منكبـــه

ليكان شيذر من كبار الشذايـــــب

يقول أبو زيد: أن عزيز من الشجاعة والجسارة أن ثوبه لم يحفي منكبه، كناية عن عدم اهتمام عزيز بالملابس والمظاهر..إلا شيذر..وهو نوع من الألبسة يرميه الرجل على منكبه..

وقال:

عزيز ذي يطعن الخصم بالقنا

يكفي على الحاضر ومن كان غايب

أي أن عزيز من يطعن بالقنا..أي الرمح..وهو بذلك يكفي قومه سواءً من كان حاضر أو من كان غائب..أي ينوب عنهم ويقوم بالمهمة بنفسه دون معاونة من أحد.

وبذلك أفصح أبو زيد عن وفاة عزيز..